سورة النمـــــل

في قوله تعالى: ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ١].

فإن قيل: ما فائدة تنكير الكتاب في قوله تعالى: ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾؟

قلنا: فائدته التفخيم والتعظيم؛ كقوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[(١)].

فإن قيل: العطف يقتضي المغايرة، فكيف عطف الكتاب المبين على القرآن والمراد به القرآن؟

قلنا: قيل: إن المراد بالكتاب المبين اللوح المحفوظ، فعلى هذا لا إشكال، وعلى القول الآخر، فنقول: العطف يقتضي المغايرة مطلقًا؛ إما لفظًا وإما معنى بدليل قول الشاعر:

فَـــألْفى قَوْلَهَـــا كَـــذِبًا ومَيْنَـــا

وقولهم: جاءني الفقيه والظريف، والمغايرة لفظًا ثابتة.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ [النمل: ٤].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾[(٢)].

قلنا: تزيين الله تعالى لهم الأعمال بخلقه الشهوة والهوى وتركيبها فيهم، وتزيين الشيطان بالوسوسة والإغواء والغرور والتمنية، فصحت الإضافتان.

وفي قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ [النمل:٧].

فإن قيل: كيف قال هنا: ﴿سَآتِيكُم﴾، وقال في سورة «طه»: ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم﴾،

---

(١) القمر: ٥٥.

(٢) النمل: ٢٤.

وأحدهما قطع والآخر ترجٍ والقصة واحدة؟

قلنا: قد يقول الراجي إذا قوي رجاؤه: سأفعل كذا، وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ﴾ مع أنه لم يكن في النار أحد، بل لم يكن المرئي نارًا، وإنما كان نورًا في قول الجمهور، وقيل: كان نارًا ثم انقلب نورًا؟

قلنا: قال ابن عباس والحسن -رضي الله عنهما: معناه: قدسن من ناداه من النار وهو الله ﷻ، لا على معنى أن الله تعالى يحل في شيء، بل على معنى أنه أسمعه النداء من النار في زعمه.

الثاني: أن «من» زائدة، والتقدير: بورك في النار وفيمن حولها، وهو موسى عليه السلام والملائكة.

الثالث: أن معناه: بورك مَن في طلب النار، وهو موسى عليه السلام.

فإن قيل: إنما يقال: بارك الله على كذا، ولا يقال: بارك الله كذا؟

قلنا: قال الفراء: العرب تقول: باركه الله وبارك فيه وبارك عليه بمعنى واحد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ﴾، ولفظ التحيات: وبارك على محمد وعلى آل محمد.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠].

فإن قيل: ما وجه صحة الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ۞ إِلاَّ مَن ظَلَمَ...﴾ الآية؟

قلنا: فيه وجوه: أحدها: أنه استثناء منقطع بمعنى «لكن».

الثاني: أنه استثناء متصل، كذا قاله الحسن وقتادة ومقاتل -رحمهم الله، ومعناه: إلا مَن ظلم منهم بارتكاب الصغيرة؛ كآدم ويونس وداود وسليمان وإخوة يوسف وموسى وغيرهم -صلوات الله وسلامه عليهم، فإنه يخاف مما فعل مع علمه أني غفور رحيم، فيكون تقدير الكلام: إلا مَن ظلم منهم؛ فإنه يخاف فمن ظلم ثم بدل حسنًا بعد سوء، فإني غفور رحيم، ولهذا قال بعضهم: «إن» هنا وقفًا على قوله: ﴿إِلاَّ مَن ظَلَمَ﴾، وابتداء

الكلام الثاني محذوف كما قدرنا.

الثالث: أن «إلاَّ» بمعنى «ولا»، كما في قوله تعالى: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾[1]، أي: ولا الذين ظلموا منهم.

الرابع: أن تقديره: أني لا يخاف لدى المرسلون ولا غير المرسلين، ﴿إِلاَّ مَن ظَلَمَ...﴾ الآية.

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ١٦].

فإن قيل: كيف قال سليمان عليه السلام: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا﴾ بـ«نون العظمة» وهو من كلام المتكبرين؟

قلنا: لم يرد به «نون العظمة»، وإنما أراد به «نون الجمع»، وعنى نفسه وأباه.

الثاني: أنه كان ملكًا مع كونه نبيًّا، فراعى سياسة الملك وتكلَّم بكلام الملوك.

وفي قوله تعالى: ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ﴾ [النمل: ٢١].

فإن قيل: كيف حل له تعذيب الهدهد حتى قال: ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾؟

قلنا: لعل ذلك أبيح له خاصة كما خصَّ بفهم منطق الطير وتسخيره له وغير ذلك.

فإن قيل: كيف استعظم الهدهد عرشها مع ما كان يرى من ملك سليمان عليه السلام حتى قال: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾؟

قلنا: يجوز أنه استصغر حالها بالنسبة إلى حال سليمان، فاستعظم لها ذلك العرش.

الثاني: أنه يجوز ألا يكون لسليمان مثله، وإن عظمت مملكته في كل شيء، كما يكون لبعض الأمراء شيء لا يكون للملك مثله.

فإن قيل: كيف قال الهدهد: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ مع قول سليمان -صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ فكأنه سوَّى بينهما؟

---

(١) البقرة: ١٥٠.

قلنا: بينهما فرق؛ وهو أن الهدهد أراد به: وأوتيت من كل شيء من أسباب الدنيا؛ لأنه عطف على الملك، وسليمان أراد به: وأوتينا من كل شيء من أسباب الدين والدنيا، ويؤيد ذلك عطفه على المعجزة وهي منطق الطير.

فإن قيل: كيف سوَّى الهدهد بين عرشها وعرش الله تعالى في الوصف بالعظم، حتى قال: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾، وقال ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[1]؟

قلنا: بين الوصفين بون عظيم؛ لأنه وصف عرشها بالعظم بالنسبة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك، ووصف عرش الله تعالى بالعظيم بالنسبة إلى ما خلق من السموات والأرض وما بينهما.

وفي قوله تعالى: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ [النمل: ٢٨].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ إذا تولى عنهم، فكيف يعلم جوابهم؟

قلنا: معناه: ثم تول عنهم مستقرًا من حيث لا يرونك، فانظر ماذا يرجعون.

الثاني: أن فيه تقديمًا وتأخيرًا تقديره: فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣].

فإن قيل: كيف استجاز سليمان عليه السلام تقديم اسمه في الكتاب على اسم الله تعالى حتى كتب فيه: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾؟

قلنا: لأنه عرف أنها لا تعرف الله تعالى وتعرف سليمان، فخاف أن تستخف باسم الله تعالى إذا كان أول ما يقع نظرها عليه، فجعل اسمه وقاية لاسم الله تعالى.

وقيل: إن اسم سليمان كان على عنوانه، واسم الله تعالى كان في أول طيه.

فإن قيل: كيف يجوز أن يكون آصف وهو كاتب سليمان عليه السلام ووزيره وليس بنبي يقدر على ما لا يقدر عليه النبي، وهو إحضار عرش بلقيس في طرفة عين؟

قلنا: يجوز أن يخص غير الرسول بكرامة لا يشاركه فيها الرسول، كما خصت مريم

(١) التوبة: ١٢٩.

بأنها كانت ترزق من فاكهة الجنة وزكريا لم يرزق منها، وكما أن سليمان -صلوات الله عليه- خرج مع قومه يستسقون فرأى نملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء تستسقي، فقال لقومه: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم، ولم يلزم من ذلك فضلها على سليمان، وقد نقل أن النبي ﷺ كان إذا أراد الخروج إلى الغزوات قال لفقراء المهاجرين والأنصار: «**ادعوا لنا بالنصرة؛ فإن الله تعالى ينصرنا بدعائكم**»، ولم يكونوا أفضل منه ﷺ، مع أن كرامة التابع من جملة كرامات المتبوع. قالوا: والعلم الذي كان عنده هو اسم الله الأعظم، فدعا به فأجيب في الحال، وهو عند أكثر العلماء كما قال البندنيجي اسم الله ثم. قيل: هو يا حي يا قيوم، وقيل: يا ذا الجلال والإكرام، وقيل: يا الله يا رحمن، وقيل: يا إلهنا وإله كل شيء إلهًا واحدًا لا إله إلا أنت، فمن أخلص النية ودعا بهذه الكلمات مع استجماع شرائط الدعاء المعروفة، فإنه يجاب لا محالة.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [النمل: ٤٤].

فإن قيل: كيف قالت: ﴿**وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾، وهي إنما أسلمت بعده على يده لا معه؛ لأنه كان مسلمًا قبلها؟

قلنا: إنما عدلت عن تلك العبارة إلى هذه؛ لأنها كانت ملكة، فلم تر أن تذكر عبارة تدل على أنها صارت مولاة له بإسلامها على يده، وإن كان الواقع كذلك.

فإن قيل: كيف يكونون صادقين وقد جحدوا ما فعلوا، فأتوا بالخبر على خلاف المخبر عنه؟

قلنا: كأنهم اعتقدوا أنهم إذا أجمعوا بين البيانين ثم قالوا: ﴿**مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ**﴾ يعنون ما شهدناه وحده كانوا صادقين؛ لأنهم شهدوا مهلكه ومهالك أهله.

وفي قوله تعالى: ﴿**قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ**﴾ [النمل:٦٥].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿**قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ**﴾، ونحن نعلم الجنة والنار وأحوال القيامة وكلها غيب؟

قلنا: معناه لا يعلم الغيب بلا دليل إلا الله أو بلا معلم إلا الله، أو جميع الغيب إلا الله. وقيل: معناه: لا يعلم ضمائر السموات والأرض إلا الله.

وفي قوله تعالى: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ [النمل: ٦٦].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أو إدرك على اختلاف القراءتين، هل مرجع الضمير فيه وفيما قبله واحد أم لا؟ وكيف مطابقة الإضراب لما قبله، ومطابقته لما بعده من الإضراب؟ وكيف وصفهم بنفي الشعور ثم بكمال العلم ثم بالشك ثم بالعمى؟

قلنا: مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ﴾ هو الكفار فقط، وفيما قبله جميع مَن في السموات والأرض، وقوله: ﴿بَلِ ادَّارَكَ﴾ معناه: بل تتابع وتلاحق واجتمع؛ كقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾، وأصله تدارك، فادغم «التاء» في «الدال»، وقوله تعالى: ﴿بَلِ ادَّارَكَ﴾ معناه: بل كمل وانتهى.

قال ابن عباس -رضي الله عنهما: يريد ما جهلوه في الدنيا علموه في الآخرة.

وقال السعدي: يريد اجتمع علمهم يوم القيامة فلم يشكوا ولم يختلفوا.

وقال مقاتل: يريد علموا في الآخرة ما شكوا فيه وغموا عنه في الدنيا؟

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ معناه: بل هم اليوم في شك من الساعة، ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ جمع عم وهو أعمى القلب. ومطابقة الإضراب الأول لما قبله أن الذين لا يشعرون وقت البعث لما كانوا فريقين: فريق منهم لا يعلمون وقت البعث مع علمهم أنه يوجد لا محالة وهم المؤمنون، وفريق منهم لا يعلمون وقته لإنكارهم أصل وجوده أفرد الفريق الثاني بالذكر بقوله تعالى: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ تأكيدًا لنفي علمهم في الدنيا، كأنه تعالى قال: بل فريق منهم لا يعلمون شيئًا من أمر البعث في الدنيا أصلاً، ثم أضرب عن الإخبار بتتابع علمهم وتلاحقه بحقيقة البعث في الآخرة إلى الإخبار عن شكهم في الدنيا في أمر البعث والساعة مع قيام الأدلة الشرعية على وجودها لا محالة، وأما وصفهم بنفي الشعور ثم بكمال العلم ثم بالشك ثم بالعمى؛ فلا تناقض فيه، لاختلاف الأزمنة، أو لاختلاف متعلقات تلك الأمور الأربعة: وهي الشعور والعلم والشك والعمى.

فإن قيل: قضاء الله تعالى وحكمه واحد؛ فما معنى قوله تعالى: ﴿إِن رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ

﴿بِحُكْمِهِ﴾، وهو بمنزلة قوله تعالى: ﴿إِن رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ بقضائه أو يحكم بينهم بحكمه.

قلنا: معناه بما يحكم به وهو عدله المعروف المألوف؛ لأنه لا يقضي إلا بالحق وبالعدل، فسمي المحكوم به حكمًا. وقيل: معناه بحكمته، ويدل عليه قراءة من قرأ: «بحكمه» جمع حكمة.

وفي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [النمل:٨٦].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ ولم يراع المقابلة بقوله تعالى: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ فيه؟

قلنا: راعى المقابلة المعنوية دون اللفظية؛ لأن معنى مبصرًا ليبصروا فيه، وقد سبق ما يشبه هذا في قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾[1].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ مع أن في ذلك علامات على وحدانية الله تعالى لجميع العقلاء؟

قلنا: إنما خصهم بالذكر؛ لأنهم هم المنتفعون بها دون غيرهم.

وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللهُ﴾ [النمل: ٨٧]. فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ﴾، ولم يقل: فيفزع وهو أظهر مناسبة؟

قلنا: أراد بذلك الإشعار بتحقيق الفزع وثبوته، وأنه كائن لا محالة؛ لأن الفعل الماضي يدل على الثبوت والتحقق قطعًا.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغرين أذلاء بعد البعث، مع أن النبيين والصديقين والشهداء يأتونه عزيزين مكرمين؟

قلنا: المراد به صغار العبودية والرق وذلها لأذل الذنوب والمعاصي، وذلك يعم الخلق كلهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾.

---

(١) الإسراء: ٥٩.

سورة القصص

في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص: ٧].

فإن قيل: ما فائدة وحي الله تعالى إلى أم موسى عليه السلام بإرضاعه وهي ترضعه طبعًا سواء أمرت بذلك أم لا؟

قلنا: أمرها بإرضاعه ليألف لبنها فلا يقبل ثدي غيرها بعد وقوعه في يد فرعون، فلو لم يأمرها بإرضاعه ربما كانت تسترضع له مرضعة، فيفوت ذلك المقصود.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي﴾ والشرط الواحد إذا تعلق به جزاءان صدق مع كل واحد منهما وحده، فيقود هذا إلى صدق قوله: فإذا خفت عليه فلا تخافي، وأنه يشبه التناقض.

قلنا: معناه: فإذا خفت عليه من القتل فألقيه في اليم ولا تخافي عليه من الغرق، ولا تناقض بينهما.

فإن قيل: ما الفرق بين الخوف والحزن حتى عطف أحدهما على الآخر في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي﴾؟

قلنا: الخوف غم يصيب الإنسان لأمر يتوقعه في المستقبل، والحزن غم يصيبه لأمر قد وضع ومضى.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص:١٥].

فإن قيل: كيف جعل موسى عليه السلام قتله القبطي الكافر من عمل الشيطان، وسمى نفسه ظالمًا واستغفر منه؟

قلنا: إنما جعله من عمل الشيطان؛ لأنه قتله قبل أن يؤذن له في قتله، فكان ذلك ذنبًا يستغفر منه مثله. قال ابن جريج: ليس لنبي أن يقتل ما لم يؤمر.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص:٢٥].

فإن قيل: إن موسى عليه السلام ما سقى لابنتي شعيب عليه السلام طلبًا للأجر، فكيف أجاب دعوتها لما قالت: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾؟

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

قلنا: يجوز أن يكون قد أجاب دعوتها ودعوة أبيها لوجه الله تعالى على سبيل البر والمعروف ابتداءً لا على سبيل الإجزاء وإن سمته هي إجزاء، ويؤيد هذا ما روي أنه لما قدم إليه الطعام امتنع وقال: إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بطلاع الأرض ذهبًا، ولا نأخذ على المعروف أجرًا، حتى قال له شعيب عليه السلام: هذه عبادتنا مع كل مَن ينزل بنا.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ [القصص: ٢٧].

فإن قيل: كيف قال له شعيب عليه السلام: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾، ومثل هذا النكاح لا يصح؛ لجهالة المنكوح، والنبي عليه السلام لا ينكح نكاحًا فاسدًا ولا يعد به؟

قلنا: إنما كان ذلك وعدًا بنكاح معينة عند الواعد، وإن كانت مجهولة عند الموعود ومثله جائز، ويكون التعيين عند إنجاز الوعد كما وقع منه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ﴾

[القصص: ٣٢].

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾، فجعل الجناح هنا مضمومًا، وقال في سورة «طه»: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾، فجعل الجناح هناك مضمومًا إليه والقصة واحدة؟

قلنا: المراد بالجناح المضموم هنا هو اليد اليمنى، والمراد بالجناح المضموم إليه في سورة «طه» ما بين العضد إلى الإبط من اليد اليسرى؛ فلا تناقض بينهما.

فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾؟

قلنا: لما رهب من الحية أمره الله تعالى أن يضم إليه جناحه؛ ليذهب عنه الفزع، وإنما قال تعالى: ﴿مِنَ الرَّهْبِ﴾؛ لأنه جعل الرهب الذي أصابه علةً وسببًا لما أمر به من ضم الجناح.

قال مجاهد: كل مَن فزع من شيء فضم جناحه إليه ذهب عنه الفزع.

وقيل: حقيقة ضم الجناح غير مرادة، بل هو مجاز عن تسكين الروع وتثبيت الجأش.

قال أبو علي: لم يرد به الضم بين شيئين، وإنما أمر بالعزم والجد في الإتيان بما طلب منه، ومثله قولهم: «اشدد حيازيمك للموت»؛ فليس فيه شد حقيقة.

وقيل: في الآية تقديم وتأخير تقديره: ولي مدبرًا من الرهب.

وفي قوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْهِ مَعِيَ رِدْءً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص:٣٤].

فإن قيل: أي فائدة في تصديق هارون لموسى -عليهما السلام- حتى قال ﴿فَأَرْسِلْهِ مَعِيَ رِدْءً يُصَدِّقُنِي﴾؟

قلنا: ليس مراده بقوله: ﴿رِدْءً يُصَدِّقُنِي﴾ أن يقول له: صدقت في دعوى الرسالة؛ فإن ذلك لا يفيده عند فرعون وقومه الذين كانوا لا يصدقونه مع وجود تلك الآية الباهرة والمعجزات الظاهرة، بل مراده أن يلخص حججه بلسانه، ويبسط القول فيها ببيانه، ويجادل عنه بالحق، فيكون ذلك سببًا لتصديقه.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهِ مَعِيَ رِدْءً يُصَدِّقُنِي﴾، وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لما قلنا لا لقوله: صدقت، فإن سحبان وائل وباقلا في ذلك سواء.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [القصص: ٤٤].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ﴾ أي: أحكمنا إليه الوحي مغنٍ عن قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: من الحاضرين عند ذلك؟

قلنا: معناه: وما كنت من الشاهدين قصته مع شعيب عليه السلام، فاختلفت القضيتان.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، وكم رأينا من الظالمين بالكفر والكبائر مَن قد هداه الله للإسلام والتوبة؟

قلنا: قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه في سورة «المائدة».

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾، وإنما يرى العذاب مَن كان ضالاً لا مهتديًا.

قلنا: جواب «لو» محذوف تقديره: ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون لما اتبعوهم أو لما رأوا العذاب.

وفي قوله تعالى: ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١].

فإن قيل: كيف قال تعالى في آخر آية الليل: ﴿بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ﴾، وقال في آخر آية النهار: ﴿بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفلاَ تُبْصِرُونَ﴾؟

قلنا: السماع والإبصار المذكوران لا تعلق لهما بظلمة الليل ولا بضياء النهار. فلذلك لم يقرن الإبصار بالضياء، وبيانه أن معنى الآيتين: أفلا يسمعون القرآن سماع تأمل وتدبر، فيستدلوا بما فيه من الحجج على توحيد الله تعالى، أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطأ والضلالة.

فإن قيل: كيف وجه صحة الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾؟

قلنا: قال الفراء: هو استثناء منقطع تقديره: رحمة من ربك، أي: للرحمة.

***

سورة العنكبوت

في قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣].

فإن قيل: قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ﴾ [العنكبوت: ١٢]، ثم قال: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾؟

قلنا: معناه وما الكافرون بحاملين شيئًا من خطايا المؤمنين التي ضمنوا حملها، وليحملن الكافرون أثقال أنفسهم وهي ذنوب ضلالهم، وأثقالاً مع أثقالهم، وهي ذنوب إضلالهم غيرهم من الكفار، لا خطايا المؤمنين التي نفى عنهم حملها، وقد سبق نظير هذا في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾، في سورة «الأنعام» وفي سورة «بني إسرائيل».

فإن قيل: ما فائدة العدول عن قوله: «تسعمائة وخمسين عامًا» إلى قوله: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا﴾ مع أن عادة أهل الحساب هو اللفظ الأول؟

قلنا: لما كانت القصة مسوقة لتسلية النبي ﷺ بذكر ما ابتلي به نوح عليه السلام من أمته وكابده من طول مصابرتهم، كان ذكر أقصى العدد الذي لا عقد أكثر منه في مراتب العدد أفضل وأعظم إلى العرض المقصود، وهو استطالة السامع مدة صبره، وفيه فائدة أخرى وهي نفي وهم إرادة المجاز بإطلاق لفظ التسعمائة والخمسين على أكثرها، فإن هذا الوهم مع ذكر الألف والاستثناء منتفٍ أو هو أبعد.

فإن قيل: كيف جاء المميز أولاً بلفظ السنة والثاني بلفظ العام.

قلنا: لأن تكرار اللفظ الواحد مجتنب في مذهب الفصحاء والبلغاء إلا أن يكون لغرض تفخيم أو تهويل أو تنويه أو نحو ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا﴾ [العنكبوت: ١٧].

فإن قيل: كيف نكَّر الرزق ثم عرَّفه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ﴾.

قلنا: لأنه أراد أنهم لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئًا من الرزق، فابتغوا عند الله الرزق كله؛ فإنه هو الرازق وحده لا يرزق غيره.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

فإن قيل: كيف أضمر اسمه تعالى في قوله ﷻ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾، ثم أظهره في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ﴾، وكان القياس كيف بدأ الله الخلق ثم ينشئ النشأة الآخرة؟

قلنا: إنما عدل إلى ما ذكر لتأكيد الإخبار عن الإعادة التي كانت هي المنكرة عندهم بالإفصاح باسمه تعالى في ذكرها وجعله مبتدأ لزيادة الاهتمام بشأنها؟

وفي قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت:٢٧].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ في معرض المدح أو في معرض الامتنان عليه، وأجر الدنيا فانٍ منقطع، بخلاف أجر الآخرة؛ فإنه النعيم المقيم الباقي، فكان الأولى بالذكر؟

قلنا: المراد به: وآتيناه أجره في الدنيا مضمومًا إلى أجره في الآخرة من غير أن ينقص من أجر الآخرة شيئًا. قال ابن جرير: وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يعني له في الآخرة جزاء الصالحين وافيًا كاملاً، وأجره في الدنيا، قيل: هو الثناء الحسن من الناس والمحبة من أهل الأديان، وقيل: هي البركة التي بارك الله فيه ذريته.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١].

فإن قيل: كيف قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ يعنون مدينة قوم لوط عليه السلام، ولم يقولوا: تلك القرية، مع أن مدينة قوم لوط كانت بعيدة عن موضع إبراهيم -صلوات الله

وسلامه عليه- غائبة عند وقت هذا الخطاب؟

قلنا: إنما قالوا هذه القرية؛ لأنها كانت قريبة حاضرة بالنسبة إليهم، وإن كانت بعيدة بالنسبة إلى إبراهيم ﷺ.

فإن قيل: كيف قالوا: ﴿أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾، ولم يقولوا: أهل هذه القرى؟ مع أن مدائن قوم لوط كانت خمسًا، فأهلكوا منها أربعًا؟

قلنا: إنما اقتصروا في الذكر على قرية واحدة؛ لأنها كانت أكبر وأقرب وهي سدوم مدينة لوط عليه السلام، فجعلوا ما وراءها تبعًا لها في الذكر.

وفي قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أي: ذوي بصائر، يقال: فلان مستبصر: إذا كان عاقلاً لبيبًا صحيح النظر، ولو كانوا كذلك لما عدلوا عن طريق الهدى إلى طريق الضلال؟

قلنا: معناه: وكانوا مستبصرين في أمور الدنيا، وقيل: معناه وكانوا عارفين الحق بوضوح الحجج والدلائل، ولكنهم كانوا ينكرونه متابعة للهوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وقيل: معناه وكانوا مستبصرين أو نظروا نظر تدبُّر وتفكُّر.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾، وكل أحد يعلم أن أضعف بيوت يتخذها الهوام بيت العنكبوت؟

قلنا: معناه: لو كانوا يعلمون أن اتخاذهم الأصنام أولياء من دون الله مثل اتخاذ العنكبوت بيتًا لما اتخذوها.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾، وكل أهل الكتاب ظالمون؛ لأنهم كافرون، ولا ظلم أشد من الكفر، أو يؤيده قوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

قلنا: المراد بالظلم هنا الامتناع عن قبول عقد الذمة وأداء الجزية أو نقض العهد بعد قبوله.

الثاني: أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩] الآية.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾؟

قلنا: فائدته تأكيد النفي، كما يقال في الإثبات للتأكيد: هذا الكتاب مما كتبه فلان بيده وبيمينه، ورأيت فلانًا بعيني، وسمعت هذا الحديث بأذني، ونحو ذلك.

فإن قيل: كيف لم يؤكد ﷺ في التلاوة ولم يقل: وما كنت تتلو من قبله من كتاب بلسانك؟

قلنا: الأصل في الكلام عدم الزيادة، وكل ما جاء على الأصل لا يحتاج إلى العلة، إنما يحتاج إلى العلة ما جاء على خلاف الأصل.

وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، ومعلوم أن المجاهدة في دين الله تعالى أو في حق الله تعالى مع النفس الأمارة بالسوء أو مع الشيطان أو مع أعداء الدين، كل ذلك إنما يكون بعد تقدم الهداية من الله تعالى، فكيف جعل الهداية من ثمرات المجاهدة؟

قلنا: معناه: والذين جاهدوا في طلب التعلم لنهدينهم سبلنا بمعرفة الأحكام وحقائقها، وقيل: معناه لنهدينهم طريق الجنة، وقيل: معناه والذين جاهدوا لتحصيل

درجة لنهدينهم إلى درجة أخرى أعلى منها، وحاصله لنزيدنهم هداية وتوفيقًا للخيرات؛ كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾، وقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾، وقال أبو سليمان الداراني -رحمة الله عليه: معناه والذين جاهدوا فيما علموا لنهدينهم إلى ما لم يعلموا. وعن بعض الحكماء: مَن عمل بما علم وفق لما لا يعلم. وقيل: إن الذي نرى من جهلنا بما لا نعلم هو من تقصيرنا فيما نعلم.

* * *

سورة الروم

في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

فإن قيل: كيف ذكر الضمير في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ والمراد به الإعادة لسبق قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾؟

قلنا: معناه ورجعه أو ورده أهون عليه، فأعاد الضمير على المعنى لأعلى اللفظ، كما في قوله تعالى: ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي: بلدًا أو مكانًا؟

فإن قيل: كيف أخرت الصلة في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، وقدمت في قوله: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: ٩]؟

قلنا: لأن هناك قصد الاختصاص، وهو يحسن الكلام، فقيل: هو عليَّ هين، وإن كان مستصعبًا عندكم أن يولد بين هيم وعاقر، وأما هنا فلا معنى للاختصاص، فجرى على أصله، والأمر مبني على ما لا يعقل الناس من أن الإعادة أسهل من الابتداء، فلو قدمت الصلة لتغير المعنى.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، والأفعال كلها بالنسبة إلى قدرة الله تعالى في السهولة سواء، وإنما تتفاوت في السهولة والصعوبة بالنسبة إلى قدرتنا؟

قلنا: معناه وهو هين عليه، وقد جاء في كلام العرب أفعل بمعنى اسم الفاعل من غير تفضيل، ومنه قولهم في الأذان: الله أكبر، أي: الله كبير في قوله بعضهم.

وقال الفرزدق:

إِنَّ الَّـذي سَـمَكَ السَّـماءَ بَنـى لَنـا بَيتًـا دَعائِمُـهُ أَعَـزُّ وَأَطـوَلُ[١]

أي: عزيزة طويلة.

وقال معن بن أوس المزني:

لَعَمـرُكَ مـا أَدري وَإِنّي لأَوجَـلُ عَـلى أَيّنـا تَغـدو المَنِيَّـةِ أَوَّلُ[٢]

أي: وإني لوجل.

وقال آخر:

أَصـبَحتُ أَمنَحُـكَ الصُـدودَ وَإِنَّنـي قَسَـمًا إِلَيـكَ مَـعَ الصُـدودِ لأَميَـلُ[٣]

أي: المائل.

وقال آخر:

تَمَنّـى رِجـالٌ أَن أَمـوتَ وَإِن أَمُـت فَتِلـكَ سَـبيلٌ لَسـتُ فيهـا بِأَوحَـدِ[٤]

أي: بواحد.

الثاني: أن معناه: وهو أهون عليه في تقديركم وحكمكم؛ لأنكم تزعمون وتعتقدون فيما بينكم أن الإعادة أهون من الابتداء، كيف وأن الابتداء من ماء والإعادة من تراب، وتركيب الصورة من التراب أهون عندكم.

الثالث: أن الضمير في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ راجع إلى المخلوق لا على الله تعالى، معناه: أنه لا صعوبة على المخلوق فيه ولا إبطاء؛ لأنه يعاد دفعة واحدة بقوله تعالى: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾، وفي الابتداء خلق نطفة، ثم نقل إلى مضغة، ثم إلى عظام، ثم إلى كسوة اللحم.

الرابع: أن الابتداء من قبيل التفضل الذي لا مقتضى لوجوبه، والإعادة من قبيل

---

(١) ديوان الفرزدق من قصيدة هذا البيت مطلعها وهي ٧٧ بيتًا.

(٢) ديوانه من قصيدة هذا البيت مطلعها وهي من ١٥ بيتًا.

(٣) ديوان الأحوص الأنصاري.

(٤) ديوان الشافعي مطلع قصيدة من ثلاثة أبيات.

الواجب؛ لأنها لا بدَّ منها لجزاء الأعمال، وجزاؤها واجب بحكم وعده ﷻ.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللهِ﴾ [الروم:٣٩].

فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ الآية على اختلاف القراءتين بالمد والقصر.

قلنا: قال الحسن -رحمه الله: المراد به الربا المحرم، والخطاب لدافعي الربا لا لآخذيه. معناه: وما أعطيتم أكلة الربا من زيادة لتربو وتزكو في أموالهم، فلا تزكو عند الله ولا يبارك فيها، ونظيره قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦] لا فرق بينهما.

وقال ابن عباس -رضي الله عنهما- والجمهور: المراد به أن يهب الرجل غيره هبة أو يهدي إليه هدية على قصد أن يعوضه أكثر منها.

وقالوا: وليس في ذلك أجر ولا وزر، وإنما سمَّاه ربًا؛ لأنه مدفوع لاجتلاب الربا، وهو الزيادة فكان سببًا لها فسمي باسمها، ومعنى قراءة المد ظاهر، وأما قراءة القصر فمعناها: وما جئتم، أي: وما فعلتم من إعطاء ربا، كما تقول: أتيت خطأ وأتيت صوابًا، أي: فعلت، وقوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ أي: ذو الأضعاف من الحسنات، وهو التفات عن الخطاب إلى الغيبة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ [الروم:٤٩]، فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِهِ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾؟

قلنا: فائدته التأكيد كما في قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر:٣٠]، وقيل: الضمير لإرسال الرياح أو السحاب فلا تكرار.

وفي قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم:٥٤]، فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾، والضعف صفة الشيء الضعيف، فكيف يخلق الإنسان من تلك الصفة مع علمنا أنه خلق من عين وهو الماء أو التراب لا من صفة.

قلنا: أطلق المصدر وهو الضعف، وأراد به اسم الفاعل وهو الضعيف، كقولهم: رجل عدل، أي: عادل ونحوه، فمعناه من ضعيف وهو النطفة. وقيل: معناه على ضعف، فـ(من) بمعنى (على)، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، والمراد به ضعف جثة الطفل حال طفوليته.

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ [الروم:٥٦]، فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ وهم إنما لبثوا في الأرض في قبورهم؟

قلنا: معناه لبثتم في قبوركم على ما في علم كتاب الله أو في خبر كتاب الله.

وقيل: معناه في قضاء الله. وقيل: فيه تقديم وتأخير، تقديره: وقال الذين أوتوا العلم في كتاب الله الذين عملوه وفهموه، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٠].

سورة لقمان

في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ [لقمان:٦]، فإن قيل: كيف يحل الغناء بعد قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ...﴾ الآية، وقد قال الواحدي في تفسير وسيطه: أكثر المفسرين على أن المراد بلهو الحديث الغناء. وروى هو أيضًا عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده ما رفع رجل قط عقيرته يتغنى إلا ارتد فيه شيطانان يضربان بأرجلهما على ظهره وصدره حتى يسكت»، وقال سعيد بن جبير ومجاهد وابن مسعود ﷺ: لهو الحديث هو والله الغناء، واشتراء المغني والمغنية بالمال. وروي أيضًا حديثًا آخر عن النبي ﷺ مسندًا أنه قال في هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾: اللعب والباطل كثير النفقة سمح فيه، لا تطيب نفسه بدرهم يتصدق به»، وروي أيضًا حديثًا آخر مسندًا عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَن ملأ سمعه من غناء لم يؤذن له أن يسمع صوت الروحانيين يوم القيامة**». قيل: وما الروحانيون؟ قال: «**قُرَّاء أهل الجنة**».

قال أهل المعاني: ويدخل في هذا كل مَن اختار اللهو واللعب والمزامير والمعازف على القرآن، وإن كان اللفظ ورد بالاشتراء؛ لأن هذا اللفظ يذكر في الاستبدال والاختيار كثيرًا. وقال قتادة -رحمه الله: حسب المرء في الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق، هذا كله نقله الواحدي -رحمه الله، وكان من كبار السلف في العلم والعمل.

وقال غيره: قال ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة: المراد بلهو الحديث الغناء.

وعن الحسن -رحمه الله تعالى: أنه كل ما ألهي عن الله تعالى. وفي معنى يشتري قولان: أحدهما: أنه الشراء بالمال، والثاني: أنه الاختيار كما مر

وقيل: الغناء منفدة المال، مفسدة القلب، مسخطة للربِّ.

قلنا: جوابه أنهم يؤولون هذه الآية ونظائرها وهذه الأحاديث ونظائرها، فيصرفونها عن ظاهرها متابعةً للهوى وميلاً إلى الشهوات، ولو نظروا بعقولهم فيما نشأ عن جمعيات السماع في زماننا هذا من المفاسد لعلموا حرمته بلا خلاف بين المسلمين، فإن شروط إباحة السماع عند مَن أباحه لا تجتمع في زماننا هذا على ما هو مسطور في كتب المشايخ وأرباب الطريق، ولو اشتغلنا بتفصيل مفاسده وعدد شروطه عند مَن أباحه لخرجنا عن مقصود كتابنا هذا.

وفي قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ [لقمان:١٤].

فإن قيل: كيف وقع قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ...﴾ الآيتين في أثناء وصية لقمان لابنه، وما الجامع بينهما؟

قلنا: هي جملة وقعت معترضة على سبيل الاستطراد تأكيدًا لما في وصية لقمان من النهي عن الشرك.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]. كيف اعترض بين الوصية ومفعولها؟

قلنا: لما وصى بالوالدين ذكر ما تكابده الأم خاصة وتعانيه من المشاق والمتاعب تخصيصًا بتأكيد الوصية وتذكير تعظيم حقها بإفرادها بالذكر، ومن هنا قال رسول الله ﷺ

لمن قال له: مَن أبر؟ قال: «أمك، ثم أمك، ثم أمك»، ثم قال بعد ذلك: «ثم أباك».

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان:١٩].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾، فجمع الأصوات وأفرد صوت الحمير

قلنا: ليس المراد ذكر صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع، إنما المراد أن كل جنس من الحيوان الناطق وغيره له صوت، وأنكر الأصوات من هذه الأجناس صوت هذا الجنس، فوجب إفراده لئلا يظن أن الاجتماع شرط في ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان:٢٧].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ﴾ يطابقه وما في الأبحر من ماء مداد، فكيف عدل عنه إلى قوله: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾؟

قلنا: استغنى عن ذكر المداد بقوله: ﴿يَمُدُّهُ﴾؛ لأنه من قولك: مد الدواة وأمدها، أي: زادها مدادًا، فجعل المحيط بمنزلة الدواة، والأبحر السبعة مملوءة مدادًا تصب فيه أبدًا صبًّا لا ينقطع، فصار نظير ما ذكرتم، ونظيره قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ [الكهف:١٠٩] الآية.

فإن قيل: كيف قال: ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾، ولم يقل: من شجر؟

قلنا: لأنه أراد تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر شجرة واحدة إلا وقد بريت أقلامًا.

فإن قيل: الكلمات جمع قلة، والمقصود التفخيم والتعظيم، فكان جمع الكثرة وهو الكلم، وهو أشد مناسبة؟ قلنا: جمع القلة هنا أبلغ فيما ذكرتم من المقصود؛ لأن جمع القلة إذا لم يفن بتلك الأقلام وذلك المداد، فكيف يفنى جمع الكثرة.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ﴾ [لقمان:٣٤].

فإن قيل: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤] الآية، كيف أضاف فيها العلم إلى نفسه في الأمور الثلاثة من الخمسة المغيبات، ونفى العلم عن العباد في الأمرين الآخرين، مع أن الأمور الخمسة سواء في اختصاص الله تعالى بعلمها وانتفاء على العباد بها؟

قلنا: إنما خص الأمور الثلاثة الأول بالإضافة إليه تعظيمًا لها وتفخيمًا؛ لأنها أجل وأعظم، وإنما خص الأمرين الآخرين بنفي علمهما عن العباد؛ لأنهما من صفاتهم وأحوالهم، فإذا انتفى عنهم علمهما كان انتفاء علم ما عداهما من الأمور الخمسة أولى.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾، ولم يقل بأي وقت تموت وكلاهما غير معلوم، بل نفى العلم بالزمان أولى؛ لأن من الناس مَن يدعي علمه وهم المنجمون، بخلاف المكان، فإن أحدًا لا يدعي علمه؟

قلنا: إنما خص المكان بنفي علمه لوجهين:

أحدهما: أن الكون في مكان دون مكان في وسع الإنسان واختياره، فيكون اعتقاده علم مكان الموت أقرب بخلاف الزمان.

الثاني: أن للمكان تأثيرًا في جلب الصحة والسقم بخلاف الزمان، أو تأثير المكان في ذلك أكثر.

***

سورة السجدة

وفي قوله: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة:٥].

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، وقال تعالى في سورة «المعارج»: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٤].

قلنا: المراد بالأول مسافة عروج الملائكة من الأرض إلى السطح الأعلى من سماء الدنيا، وذلك ألف سنة، خمسمائة سنة مسافة ما بين السماء والأرض، وخمسمائة سنة مسافة سمك سماء الدنيا، والمراد بالثاني مسافة عروج الملائكة من الأرض إلى العرش.

الثاني: أن المراد به في الآيتين يوم القيامة، ومقداره ألف سنة من حساب أهل الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:٤٧]، ومعنى قوله تعالى: ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي: لو تولى فيه حساب الخلق غير الله تعالى.

الثالث: أنه كألف سنة في حق عوام المؤمنين، والخمسين ألف سنة في حق الكافرين لشدة ما يكابدون فيه من الأهوال والمحن، وكساعة من أيام الدنيا في حق خواص المؤمنين، ويؤيده ما روي أنه قيل: يا رسول الله، يوم مقداره خمسون ألف سنة ما أطوله؟ فقال: «**والذي نفسي بيده ليخفف على المؤمن حتى يكون عليه أخف من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا**». وروي أن ابن عباس -رضي الله عنهما- سُئل عن هاتين الآيتين؟ فقال: يومان ذكرهما الله تعالى في كتابه، وإني أكره أن أقول في كتاب الله بما لا أعلم.

وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة:٧].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ أو ﴿كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾

على اختلاف القراءتين، ومقتضى القراءتين ألا يكون في مخلوقات الله تعالى شيء قبيح والواقع خلافه، ولو لم يكن إلا الشرور والمعاصي؛ فإنها مخلوقة لله تعالى عند أهل السنة والجماعة مع أنها قبيحة.

وفي قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب:٦].

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ جعل أزواج النبي ﷺ بمنزلة أمهات المؤمنين حكمًا، أي: في الحرمة والاحترام، وما جعل النبي ﷺ بمنزلة أبيهم حتى قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب:٤٠]؟

قلنا: أراد الله بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أن أمته يدعون أزواجه بأشرف الأسماء، وأشرف أسماء النساء الأم، وأشرف أسماء النبي ﷺ رسول الله لا الأب.

الثاني: أنه تعالى جعلهن أمهات المؤمنين تحريمًا لهن إجلالاً وتعظيمًا له ﷺ كيلا يطمع أحد في نكاحهن بعده، فلو جعل النبي ﷺ أبًا للمؤمنين لكان أبًا للمؤمنات أيضًا، فلم يجعل له نكاح امرأة من المؤمنات بل يحرمن عليه، وذلك ينافي إجلاله وتعظيمه، وقد جعله أعظم من الأب في القرب والحرمة بقوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾، فجعل ﷺ أقرب إليهم من أنفسهم، وكثير من الآباء يتبرأ من ابنه ويتبرأ منه ابنه أيضًا؛ وليس أحد يتبرأ من نفسه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ﴾ [الأحزاب:٧].

فإن قيل: كيف قدم النبي ﷺ على نوح ومن بعده في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾؟

قلنا: لأن هذا العطف من باب عطف الخاص على العام الذي هو جزء منه لبيان التفضيل والتخصيص بذكر مشاهير الأنبياء وذراريهم، فلما كان النبي ﷺ أفضل هؤلاء المفضلين قدم عليهم، وفي الميثاق المأخوذ قولان:

أحدهما: أنه تعالى أخذ منهم الميثاق يوم أخذ الميثاق بأن يصدق بعضهم بعضًا.

والثاني: أخذ منهم الميثاق أن يوحدوا الله تعالى، ويدعوا إلى توحيده، ويصدق بعضهم بعضًا.

فإن قيل: فكيف قدم نوح عليه السلام في نظير هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ**﴾ [الشورى:١٣] ؟

قلنا: لأن تلك الآية سبقت لوصف دين الإسلام بالأصالة والاستقامة؛ كأنه قال: شرع لكم الدين الأصيل الذي بعث عليه نوح عليه السلام في العهد القديم، وبعث عليه محمد ﷺ في العهد الحديث، وبعث عليه من توسطهما من الأنبياء المشاهير، فكان تقديم نوح عليه السلام أشد مناسبة بالمقصود من سوق الآية.

فإن قيل: ما فائدة إعادة أخذ الميثاق في قوله تعالى: ﴿**وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا**﴾؟

وفي قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ**﴾ [الأحزاب:٢٢].

فإن قيل: كيف أظهر تعالى الاسمين مع تقدم ذكرهما في قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ**﴾؟

قلنا: لئلا يكون الضمير الواحد عائدًا على الله تعالى وغيره.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا**﴾ [الأحزاب:٢٧].

فإن قيل: كيف قال تعالى في وصف بني قريظة: ﴿**وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا**﴾، والله تعالى إنما ملكهم أرضهم بعدما وطئوها وظهروا عليها؟

قلنا: معناه ويورثكم بطريق وضع الماضي موضع المستقبل مبالغة في تحقيق الموعود وتأكيده.

الثاني: أن فيه إضمارًا تقديره: وأرضًا لم تطئوها سيورثكم إياها، يعني أرض مكة، وقيل: أرض فارس والروم، وقيل: أرض خيبر، وقيل: كل أرض ظهر عليها المسلمون

بعد ذلك إلى يوم القيامة.

الثالث: أن معناه وأورثكم ذلك كله في الأزل بكتابته لك في اللوح المحفوظ.

وفي قوله تعالى: ﴿**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ**﴾ [الأحزاب:٣٠].

فإن قيل: كيف خص الله تعالى نساء النبي ﷺ بتضعيف العقوبة على الذنب والمثوبة على الطاعة في قوله تعالى: ﴿**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ**﴾ الآيتين؟

قلنا: أما تضعيف العقوبة؛ فلأنهن يشاهدن من الزواجر الرادعة عن الذنوب ما لا يشاهد غيرهن.

الثاني: أن في معصيتهن أذى لرسول الله ﷺ، وذنب من آذى رسول الله ﷺ أعظم من ذنب غيره، والمراد بالفاحشة النشوز وسوء الخلق، كذا قاله ابن عباس -رضي الله عنهما.

أما تضعيف المثوبة؛ فلأنهن أشرف من سائر النساء بقربهن من رسول الله ﷺ، فكانت الطاعة منهن أشرف، كما كانت المعصية منهن أقبح، ونظير ذلك الوزير والنواب في طاعتهما للملك ومعصيتهما.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ**﴾، ولم يقل: كواحدة من النساء؟

قلنا: قد سبق نظير هذا مرة في آخر سورة «البقرة» في قوله تعالى: ﴿**لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ**﴾ [البقرة:٢٨٥].

فإن قيل: كيف أمر الله تعالى نساء النبي بالزكاة في قوله تعالى: ﴿**وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ**﴾، ولم يملكن نصابًا حولاً كاملاً؟

قلنا: المراد بالزكاة هنا الصدقة النافلة، والأمر أمر ندب.

فإن قيل: ما الفرق بين المسلم والمؤمن حتى عطف أحدهما على الآخر في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾ مع أنهما متحدان شرعًا؟

قلنا: المراد بالمسلم الموحد بلسانه، وبالمؤمن من المصدق بقلبه.

وفي قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب:٤٠].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ مع أنه كان أبًا للطاهر والطيب والقاسم وإبراهيم -عليهم السلام؟

قلنا: قوله تعالى: ﴿مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ يخرجهم من حكم النفي من وجهين:

أحدهما: أنهم لم يبلغوا مبلغ الرجال، بل ماتوا صبيانًا.

والثاني: أنه أضاف الرجال إليهم، وهم كانوا رجاله لا رجالهم.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ وعيسى عليه السلام ينزل بعده وهو نبي؟

قلنا: معنى كونه خاتم النبيين أنه لا يتنبأ أحد بعده، وعيسى ممن نبي قبله وحين ينزل عاملاً بشريعة محمد ﷺ مصليًا إلى قبلته كأنه بعض أمته؟

وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب:٤٣].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ معناه يرحمكم ويغفر لكم، فما معنى قوله تعالى: ﴿وَمَلَائِكَتُهُ﴾ والرحمة والمغفرة محال؟

قلنا: جعلوا لكونهم مستجابي الدعوة بالرحمة والمغفرة كأنهم فاعلو الرحمة والمغفرة، ونظيره قولهم: حياك الله، أي: أحياك وأبقاك، وحيا زيد عمرًا: أي دعا بأن يحييه الله اتكالاً منه على إجابة دعوته، ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥].

فإن قيل: قد فهم من قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ﴾ أنه مأذون له في الدعاء إلى الله تعالى، فما فائدة قوله سبحانه: ﴿بِإِذْنِهِ﴾.

قلنا: معناه بتسهيله وتيسيره، وقيل: معناه بأمره لا أنك تدعوهم من تلقاء نفسك.

وفي قوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦].

فإن قيل: كيف شبَّه الله تعالى النبي ﷺ بالسراج دون الشمس، والشمس أتم وأكمل في قوله تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾؟

قلنا: قيل: إن المراد بالسراج هنا الشمس كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦]. وقيل: إنما شبَّه بالسراج؛ لأن السراج يتفرع ويتولد منه سرج لا تعد ولا تحصى بخلاف الشمس، والنبي ﷺ تفرع منه بواسطة إرشاده وهدايته جميع العلماء من عصره إلى يومنا هذا، وهلم جرا إلى يوم القيامة. وقيل: إنما شبهه بالسراج؛ لأنه بعثه في زمان يشبه الليل بظلمات الكفر والجهل والضلال.

فإن قيل: كيف شبهه بالسراج دون الشمع، والشمع أشرف ونوره أتم وأكمل؟

قلنا: قد سبق الجواب على مثل هذا في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ [الأحزاب:٤٩].

فإن قيل: كيف خص تعالى المؤمنات بعدم وجوب العدة في الطلاق قبل المسيس في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ...﴾ الآية، مع أن حكم الكتابية كذلك أيضًا؟

قلنا: هذا خرج مخرج الأغلب والأكثر لا تخصيص.

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

فإن قيل: كيف أفرد سبحانه العم وجمع العمات، وأفرد الخال وجمع الخالات في قوله تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ﴾، والمعهود في كلام العرب مقابلة الجمع بالجمع؟

قلنا: لأن العم اسم على وزن المصدر الذي هو الضم ونحوه، وكذا الخال على وزن القال ونحوه، فيستوي فيه المفرد والتثنية والجمع، بخلاف العمة والخالة، بخلاف العمة والخالة، ونظيره قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ﴾ [البقرة:٧].

فإن قيل: هذا الجواب منقوض بقوله تعالى في سورة «النور»: ﴿بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ﴾ [النور:٦١]؟

قلنا: العم والخال ليسا مصدرين حقيقة، بل على وزن المصدر فاعتبر هنا شبههما بالمصدر، وهناك حقيقتهما عملاً بالجهتين، بخلاف السمع؛ فإنه لما كان مصدرًا حقيقة ما جاء قط في الكتاب العزيز إلا مفردًا.

وفي قوله تعالى: ﴿لاَ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلاَ أَبْنَائِهِنَّ وَلاَ إِخْوَانِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٥].

فإن قيل: كيف ذكر الأقارب في قوله تعالى: ﴿لاَ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٥] الآية، ولم يذكر العم والخال وحكمهما حكم من ذكر في رفع الجناح؟

قلنا: سبق مثل هذا السؤال وجوابه في سورة «النور» في قوله تعالى: ﴿وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١]، فالأولى أن تستتر المرأة عن عمها وخالها؛ لئلا يصف محاسنها عند ابنه فيفضي إلى الفتنة.

فإن قيل: السادة والكبراء بمعنى واحد، فكيف عطف أحدهما على الآخر في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا﴾ [الأحزاب:٦٧]؟

قلنا: هو من باب عطف اللفظ المغاير له مع اتحاد معناهما؛ كقولهم: فلان عاقل لبيب، وهذا حسن جميل، وقول الشاعر:

معاذ الله من كذب ومين[1]

فإن قيل: المراد بالإنسان آدم -عليه الصلاة والسلام- في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ﴾، فكيف قال سبحانه: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب:٧٢]، وفعول من أوزان المبالغة، فيقتضي بكرار الظلم والجهل منه وأنه منتفٍ؟

قلنا: لما كان عظيم القدر رفيع المحل كان ظلمه وجهله لنفسه أقبح وأفحش، فقام عظم الوصف مقام الكثرة، وقد سبق نظيره هذا في سورة «آل عمران» في قوله تعالى:

(١) ابن بسام البغدادي من قصيدة من بيتين.

﴿وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران:١٨٢].

وقيل: إنما سماه ظلومًا جهولاً لتعدي ضرر ظلمه وجهله إلى جميع الناس، فإنهم أخرجوا من الجنة بواسطته وتسلط عليهم إبليس وجنوده.

سورة سبأ

في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [سبأ:٩].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾، ولم يقل: إلى ما فوقهم وما تحتهم من السماء والأرض؟

قلنا: ما بين يدي الإنسان هو كل شيء يقع نظره عليه من غير أن يحول وجهه إليه، وما خلفه هو كل شيء لا يقع نظره على حتى يحول وجهه إليه وما خلفه هو كل شيء لا يقع نظره عليه حتى يحول وجهه إليه، فكان اللفظ المذكور أتم مما ذكر.

فإن قيل: هلا ذكر سبحانه الأيمان والشمائل هنا كما ذكرها في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ [الأعراف:١٧]؟

قلنا: لأنه وجد هنا ما يغني عن ذكرها، وهو لفظ العموم وذكر السماء والأرض ولا كذلك ثمة.

فإن قيل: كيف استجاز سليمان عليه السلام عمل التماثيل وهي التصاوير؟

قلنا: قيل: إن عمل الصور لم يكن محرمًا في شريعته، ويجوز أن يكون صور غير الحيوان كالأشجار ونحوها، وذلك غير محرم في شريعتنا أيضًا.

وفي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [سبأ: ١٥].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ﴾، ولم يقل: آيتان

جنتان، وكل جنة كانت آية، أي: علامة على توحيد الله تعالى؟

قلنا: لما تماثلتا في الدلالة واتحدت جهتهما فيها جعلهما آية واحدة، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ [الأعراف:١٧]؟

وفي قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٢].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي: الذين زعمتوهم آلهة من دون الله، مع أن المشركين ما زعموا غير الله إلهًا دون الله، بل مع الله على وجه الشركة؟

قلنا: النص لا يدل على زعمهم حصر الآلهة في غير الله نصًّا، بل يوهم ذلك، ولو دلَّ فتقول: فيه تقديم وتأخير تقديره: ادعوا الذين من دون الله زعمتهم أنهم شركاء الله.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

فإن قيل: ما معنى التشكيك في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾؟

قلنا: قيل: إن «أو» هنا بمعنى «الواو» في الموضعين، فيصير المعنى: نحن على الهدى وأنتم في الضلال. وقيل: معناه: وإنا لضالون أو مهتدون وإنكم لكذلك، وهو من التعريض بضلالهم كما يقول الرجل لصاحبه إذا أراد تكذيبه: والله إن أحدنا لكاذب، ويعني به صاحبه.

وفي قوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ:٤١].

فإن قيل: كيف قالت الملائكة -عليهم السلام- في حق المشركين: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾، ولم ينقل عن من المشركين أنه عبد الجن؟

قلنا: معناه كانوا يطيعون الشياطين فيما يأمرونهم به من عبادتنا أكثرهم بهم مؤمنون، أي: أكثر المشركين مصدقون بالشياطين فيما يخبرونهم به من الكذب أن الملائكة بنات الله -تعالى الله عن ذلك- فالمراد بالجن الشياطين.

سورة فاطر

في قوله تعالى: ﴿وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ﴾ [فاطر:٩].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ كيف جاء فتثير مضارعًا دون ما قبله وما بعده؟

قلنا: هو مضارع وضع موضع الماضي، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب:٣٧].

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر:١١].

فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾؟

قلنا: معناه وما يعمر من أحد، وإنما سماه معمرًا بما هو سائر إليه.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤]، وكم من أمة كانت في الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ، ولم يخل فيها نذير؟

قلنا: إذا كان آثار النذارة باقية لم تخل من نذير إلى أن تندرس وحين اندرست آثار عيسى بعث محمد -عليهما الصلاة والسلام.

فإن قيل: كيف اكتفى ﷻ بذكر النذير عن البشير في آخر الآية بعد سبق ذكرهما في أولهما؟

قلنا: لما كانت النذارة مشفوعة بالبشارة لا محالة استغنى بذكر أحدهما عن الآخر بعد سبق ذكرهما.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر:٣٥].

فإن قيل: ما الفرق بين النصب واللغوب حتى عطف أحدهما على الآخر.

قلنا: النصب المشقة والكلفة، واللغوب الفتور الحاصل بسبب النصب فهو نتيجة

النصب، كذا فرق بينهما الزمخشري -رحمه الله، ويرد على هذا أن يكون انتفاء الثاني معلومًا من انتفاء الأول.

وفي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧].

مع أنه يوهم أنهم يعملون صالحًا آخر غير الصالح الذي عملوه، وهم ما عملوا، صالحًا قط بل سيئًا؟

قلنا: هم كانوا يحسبون أنهم على سيرة صالحة، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٤]، فمعناه الذي كنا نحسبه صالحًا فنعمله.

سورة يس

في قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ [يس:١٤].

فإن قيل: كيف قال تعالى أولاً: ﴿إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾، وقال سبحانه ثانيًا: ﴿إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾؟

قلنا: لأن الأول ابتداء إخبار، فلم يحتج إلى التأكيد باللام بخلاف الثاني؛ فإنه جواب بعد الإنكار والتكذيب فاحتاج إلى التأكيد.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:٢٢].

فإن قيل: كيف أضاف الفطر إلى نفسه بقوله: ﴿فَطَرَنِي﴾، وأضاف البعث إليهم بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ مع علمه أن الله تعالى فطره وفطرهم، وسوف يبعثه ويبعثهم، فهلا قال: فطرنا وإليه نرجع أو فطركم وإليه ترجعون؟ قلنا: لأن الخلق والإيجاد نعمة من الله تعالى توجب الشكر والبعث بعد الموت وعيد وتهديد يوجب الزجر، فكان إضافته النعمة إلى نفسه أظهر في الشكر، وإضافته البعث إليهم أبلغ في الزجر.

وفي قوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس:٣٠].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾، والتحسر على الله تعالى محال؟

قلنا: هو تحسير الخلق؛ معناه: قولوا: يا حسرتنا على أنفسنا لا نحسر من الله تعالى.

وفي قوله تعالى: ﴿لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ القَمَرَ﴾ [يس:٣٠].

فإن قيل: كيف نفى الله ﷻ الإدراك عن الشمس للقمر دون عكسه وهو: «ولا القمر ينبغي له أن يدرك الشمس»؟

قلنا: لأن سير القمر أسرع، فإنه يقطع فلكه في شهور، والشمس لا تقطع فلكها إلا في سنة، فكانت الشمس جديرة بأن توصف بنفي الإدراك لبطء سيرها، والقمر خليقًا بأن يوصف بالسبق لسرعة سيره، هذا سؤال الزمخشري -رحمه الله- وجوابه، ويرد عليه أن سرعة سير القمر يناسب أن ينفي الإدراك عنه؛ لأنه إذا قيل: لا القمر له أن يدرك الشمس مع سرعة سيره علم بالطريق الأولى أن الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر مع بطء سيرها، فأما إذا قيل: لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر أمكن أن يقال: إنما لم تدركه لبطء سيرها، فأما القمر فيجوز أن يدركها لسرعة سيره.

وفي قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس:٤١].

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ﴾ أي: لأهل مكة ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: ذرية أهل مكة أو ذرية قوم نوح ﷺ ﴿الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾، والذرية اسم للأولاد والمحمول في سفينة نوح -عليه الصلاة والسلام- آباء أهل مكة لا أولادهم؟

قلنا: الذرية من أسماء الأضداد تطلق على الآباء والأولاد بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ۞ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ٣٣]، وصف جميع المذكورين بكونهم ذرية وبعضهم آباء وبعضهم أبناء، فمعناه: حملنا آباء أهل مكة أو حملنا أبناءهم؛ لأنهم كانوا في ظهور آبائهم المحمولين.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يس:٤٨].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعنون الوعد بالبعث والجزاء، والوعد كان واقعًا لا منتظرًا؟

قلنا: معناه متى إنجاز هذا الوعد وصدقه، بحذف المضاف أو بإطلاق اسم الوعد على الموعود كضرب الأمير ونسج اليمن.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس:٥٢].

فإن قيل: قولهم: ﴿مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ سؤال عن الباعث؛ فكيف طابقه ما بعده جوابًا؟

قلنا: معناه بعثكم الرحمن الذي وعدكم البعث وأنبأكم به الرسل إلا أن جئ به على هذه الطريقة تبكيتًا لهم وتوبيخًا.

وفي قوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ [يس:٥٦].

فإن قيل: كيف قال تعالى في صفة أهل الجنة: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾، والظل إنما يكون حيث تكون الشمس، ولهذا لا يقال لما في الليل ظل والجنة لا يكون فيها شمس؛ لقوله تعالى: ﴿لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلاَ زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان:١٣]؟

قلنا: ظل أشجار من نور العرش لئلا تبهر أبصار أهل الجنة، فإنه أعظم من نور الشمس، وقيل: من نور قناديل العرش.

وفي قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ﴾ [يس:٦٥].

فإن قيل: كيف سمى ﷻ نطق اليد كلامًا ونطق الرجل شهادةً في قوله: ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾؟

قلنا: لأن اليد كانت مباشرة والرجل حاضرة، وقول الحاضر على غيره شهادة، وقول الفاعل على نفسه ليس بشهادة، بل إقرار بما فعل.

قلت: وفي الجواب نظر.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٦٩].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ مع أنه ﷺ قد روي عنه ما هو شعر، وهو قوله ﷺ:

أَنَـــا النَّبِـــيُّ لاَ كَـــذِبْ أَنَـــا ابْـــنُ عَبْـــدِ المُطَّلِـــبْ

وقوله ﷺ:

هَـــلْ أَنْـــتِ إِلاَّ إِصْـــبَعٌ دَمِيـــتِ وَفِي سَـــبِيلِ اللهِ مَـــا لَقِيـــتِ[1]

قلنا: هذا ليس بشعر؛ لأن الخليل لم يعد مشطور الرجز شعرًا، وقوله: «**هَلْ أَنْتِ إِلاَّ إِصْبَعٌ دَمِيتِ**» من مشطور بحر الرجز، كيف وقد روي أنه ﷺ قال: «**دميت ولقيت**» بفتح الياء وسكون التاء، وعلى هذا لا يكون شعرًا، وإنما الراوي حرَّفه فصار شعرًا.

الثاني: أن حد الشعر قول موزون مقفى مقصود به الشعر، والقصد منتفٍ فيما روي عنه ﷺ، فكان كما يتفق وجوده في كل كلام منثور من الخطب والرسائل ومحاورات الناس، ولا يعده أحد شعرًا.

وفي قوله تعالى: ﴿**أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا**﴾ [يس: ٧١].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿**مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا**﴾، والله تعالى منزهٌ عن الجارحة؟

قلنا: هو كناية عن الانفراد بخلق الأنعام والاستبداد به بغير شريك، كما يقال في الحب وغيره من أعمال القلب هذا مما عملته يداك، ويقال لمن لا يد له: يداك أو يديك، وكذا قوله تعالى: ﴿**لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**﴾.

فإن قيل: كيف سمى قوله: ﴿**مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ**﴾ مثلاً ليس بمثل، وإنما استفهام إنكار؟

قلنا: سماه مثلاً لما دل عليه من قصة عجيبة شبيهة بالمثل، وهو إنكار الإنسان قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، مع أن العقل والنقل كلاهما يشهد بقدرة الله على ذلك.

***

(١) ديوان عبد الله بن رواحة مطلع قصيدة من تسعة أبيات.

سورة الصافات

في قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ [الصافات:٥].

فإن قيل: كيف جمع تعالى المشارق هنا وثناهما في سورة «الرحمن»، وكيف اقتصر هنا على ذكر المشارق وذكر ثمة المغربين أيضًا وذكر المغارب مع المشارق مجموعين في قوله تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ [المعارج:٤٠]، وذكرهما مفردين في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء:٢٨]؟

قلنا: لأن القرآن نزل بلغة العرب على المعهود من أساليب كلامهم وفنونه ومن أساليب كلامهم وفنونه الإجمال والتفصيل والبسط والإيجاز، فأجمل تارة بقوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ أراد مشرقي الصيف والشتاء ومغربيها على الإجمال، وفصَّل تارة بقوله تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ أراد جمع مشارق السنة ومغاربها، وهي تزيد على سبعمائة، وبسط مرة بقوله تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾، وأوجز واختصر مرة بقوله تعالى: ﴿رَبِّ الْمَشَارِقِ﴾ لدلالة المذكور وهي المشارق على المحذوف وهي المغارب، وكانت المشارق أولى بالذكر؛ لأنها أشرف إما لكون الشروق سابقًا في الوجود على الغروب، أو لأن المشارق منبع الأنوار والأضواء.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات:٦].

فإن قيل: كيف خص ﷻ سماء الدنيا بقوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ مع أن غير سماء الدنيا مزينة بالكواكب أيضًا؟

قلنا: إنما خصها بالذكر؛ لأنا نحن نرى سماء الدنيا لا غير.

وفي قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات:١٢].

فإن قيل: كيف وجه قراءة الضم في قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ وهي قراءة علي وابن مسعود وابن عباس ﷺ واختيار القراء، والتعجب روعة تعتري الإنسان عند استعظام الشيء، والله تعالى لا تجوز عليه الروعة؟

قلنا: أراد بالتعجب الاستعظام وهو جائز من الله تعالى كما استعظم كيد النساء، وإنكار معجزات الأنبياء -عليهم السلام.

الثاني: أن معناه: قُلْ يا محمد بل عجبت، وكان شريح يقرأ بالفتح ويقول: إن الله تعالى لا يعجب من شيء، وإنما يعجب مَن لا يعلم، فقال إبراهيم النخعي: إن شريحًا كان يعجبه علمه وعبد الله أعلم منه. وكان يقرأ بالضم يريد عبد الله بن مسعود. قال الزجاج: وإنكار هذه القراءة غلط؛ لأن العجب من الله تعالى خلاف العجب من الآدميين، ونظيره قوله تعالى: ﴿**وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ**﴾ [آل عمران:٥٤]، وقوله تعالى: ﴿**سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ**﴾ وما أشبهه، وفي الذي وقع منه العجب قولان:

أحدهما: كفرهم بالقرآن.

والثاني: إنكارهم البعث.

وفي قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الصافات:٨١].

فإن قيل: كيف مدح سبحانه نوحًا عليه السلام بقوله: ﴿**إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ**﴾ مع أن مرتبة الرسل فوق مرتبة المؤمنين؟

قلنا: إنما مدحه بذلك تنبيهًا لنا على جلالة محل الإيمان وشرفه، وترغيبًا في تحصيله والثبات عليه والازدياد منه، كما قال تعالى في مدح إبراهيم عليه السلام: ﴿**وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ [البقرة: ١٣٠].

وفي قوله تعالى: ﴿**فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ**﴾ [الصافات:٨٩].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿**فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ**﴾، والنظر إنما يتعدى بـ(إلى)، قال الله تعالى: ﴿**وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ**﴾، وقال: ﴿**فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ**﴾؟

قلنا: «في» هنا بمعنى «إلى» كما في قوله تعالى: ﴿**فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ**﴾ [إبراهيم:٩].

الثاني: أن المراد به نظر الفكر لا نظر العين، ونظر الفكر إنما يعدى بـ(في) قال الله تعالى: ﴿**أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ [الأعراف: ١٨٥]. فصار المعنى ففكر

في علم النجوم أو في حال النجوم.

وفي قوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات:٨٩].

فإن قيل: كيف استجاز إبراهيم عليه السلام أن يقول: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، ولم يكن سقيمًا؟

قلنا: معناه سأسقم كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ [الزمر:٣٠]، فهو من معاريض الكلام قاله ليتخلف عنهم إذا خرجوا إلى عيدهم فيكيد أصنامهم.

وقال ابن الأنباري: أعلمه الله تعالى أنه يمتحنه بالسقم إذا طلع نجم كذا، فلما رآه علم أنه سيسقم، وقيل: معناه إني سقيم القلب عليكم إذا عبدتم الأصنام وتكهنتم بنجوم لا تضر ولا تنفع. وقيل: أنه عرض له مرض وكان سقيمًا حقيقة.

وقال الزمخشري: قد جوز بعض الناس الكذب في المكيدة في الحرب والتقية وإرضاء الزوج والصلح بين المتخاصمين والمتهاجرين. قال: والصحيح أن الكذب حرام إلا إذا عرَّض وورَّى، وإبراهيم -صلوات الله عليه- عرَّض بقوله وورَّى، فإنه أراد أن من في عنقه الموت سقيم، كما قيل في المثل: «كفى بالسلامة داء».

وقال لبيد:

وَدَعَوتُ رَبّي بِالسَلامَةِ جاهِدًا ... لِيُصِحَّبَني فَإِذا السَلامَةُ داءُ[1]

وروى أن رجلاً مات فجأةً، فاجتمع عليه الناس وقالوا: مات وهو صحيح، فقال أعرابي: أصحيح من الموت في عنقه؟

فإن قيل: لم يجوز النظر في علم النجوم مع أن إبراهيم عليه السلام قد نظر فيه وحكم منه؟

قلنا: إذا كان المنجم كإبراهيم في أن الله تعالى أراه ملكوت السموات والأرض أبيح له النظر في علم النجوم والحكم منه.

وفي قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩٣].

أي: يسرعون، يدل على أنهم عرفوا أنه هو الكاسر لها، وقوله تعالى في سورة «الأنبياء»: ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا﴾ [الأنبياء: ٥٩] وما بعده يدل على أنهم ما عرفوا أنه

(١) ديوان النابغة الجعدي، وديوان لبيد بن ربيعة العامري، وديوان عمرو بن قميئة.

الكاسر لها، فكيف التوفيق بينهما؟

قلنا: يجوز أن يكون الذي عرفه وزف إليه بعضهم، والذي جهله وسأل عنه بعض آخر، ويجوز أن الكل جهلوه وسألوا عنه، فلما عرفوا أنه الكاسر لها زفوا إليه كلهم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩].

فإن قيل: ما معنى قوله صلوات الله عليه: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾؟

قلنا: معناه إلى حيث أمرني ربي بالمهاجرة وهو الشام، وقيل: إلى طاعة ربي ورضاه، وقيل: إلى أرض ربي، وإنما خصها بالإضافة إلى الله تعالى تشريفًا لها وتفضيلاً؛ لأنها أرض مقدسة مبارك فيها للعالمين، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لله﴾ [الجن: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ وهو كان مهتديًا؟

قلنا: معناه: سيثبتني على ما أنا عليه من الهدى ويزيدني هدى. وقيل: معناه: سيهدين إلى الجنة. وقيل: إلى الصواب في جميع أحوالي، ونظيره قوله موسى عليه السلام: ﴿قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ [الصافات: ١٠٢].

فإن قيل: كيف شاور إبراهيم ولده -عليهما السلام- في ذبحه بقوله: ﴿فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ مع أنه كان حتمًا على إبراهيم؛ لأنه أمر به، لأن معنى قوله: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ أنه أمر بذبحه في المنام، ورؤيا الأنبياء حق، فإذا رأوا شيئًا في المنام فعلوه في اليقظة، كذا قاله قتادة؛ والدليل على أن منامه كان وحيًا بالأمر بالذبح قوله: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾.

قلنا: لم يشاوره ليرجع إلى رأيه في ذلك، ولكن ليعلم ما عنده من الصبر فيما نزل من بلاء الله تعالى، فيثبت قدمه إن جزع، ويأمن عليه الزلل إن صبر وسلم، وليعلم القصة فيوطن نفسه على الذبح، ويهونه عليها فيلقى البلاء وهو كالمستأنس به، ويكتسب الثواب والصبر لأمر الله تعالى قبل نزوله، وليكون سنة في المشاورة، فقد قيل: لو شاور آدم

الملائكة في أكل الشجرة لما فرط منه ذلك.

فإن قيل: كيف قيل له: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾، وإنما يكون مصدقًا لها لو وجد منه ولم يوجد؟

قلنا: معناه قد فعلت غاية ما في وسعك مما يفعله الذابح من إلقاء ولدك وإمرار الشفرة على حلقه، ولكن الله تعالى منع الشفر أن تقطع. وقيل: إن الذي رآه في المنام معالجة الذبح فقط لا إراقة الدم، وقد فعل في اليقظة فكان مصدقًا للرؤيا.

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣].

فإن قيل: أين جواب «لما» في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾؟

قلنا: قيل: هو محذوف تقديره: استبشرا واغتبطا وشكرا الله تعالى على ما أنعم به عليهما من الفداء، أو تقديره: سعدا، أو أجزل ثوابهما. وقيل: الجواب هو قوله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ﴾، و«الواو» زائدة كما في قول امرئ القيس:

فَلَـمّا أَجَزنـا سـاحَةَ الحَـيِّ وَانتَحـى بِنـا بَطـنُ خَبـثٍ ذي حِقـافٍ عَقَنقَـلِ[1]

أي: فلما أجزنا ساحة الحي انتحى، كذا نقله ابن الأنباري في شرحه.

فإن قيل: كيف قال تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾، وفي غيرها من القصص قبلها وبعدها ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

قلنا: لما سبق في قصة إبراهيم عليه السلام مرة: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ طرحه في الثاني تخفيفًا واختصارًا واكتفاه بذكره مرة بخلاف سائر القصص.

وفي قوله تعالى: ﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ [الصافات: ١٣٤].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ وهو كان من المرسلين قبل زمان التنجية؟

قلنا: قوله: ﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ﴾ لا يتعلق بما قبله، بل يتعلق بمحذوف تقديره: واذكر لهم يا محمد إذ نجيناه أو أنعمنا عليه إذ نجيناه، وكذا السؤال في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ

(١) معلقة امرئ القيس.

﴿الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧].

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾، و«أو» كلمة شك، والشك على الله محال؟

قلنا: قيل: «أو» هنا بمعنى «بل» فلا شك، وقيل: بمعنى «الواو» كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [النساء: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾، وقيل: معناه أو يزيدون في تقديركم، فلو رآهم أحد منكم لقال: هم مائة ألف أو يزيدون، فالشك إنما دخل في حكاية قول المخلوقين، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٩].

وفي قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ [الصافات: ١٧٤].

فإن قيل: ما فائدة تكرار الأمر بالقولية والإبصار في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ وأبصرهم الآيات؟

قلنا: فائدته تأكيد التهديد والوعيد.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾، ثم قال: ﴿وَأَبْصِرْ﴾؟

قلنا: طرح ضمير المفعول تخفيفًا واختصارًا واكتفاءً بسبق ذكره مرة، وقيل: معنى الأول: وأبصرهم إذا نزل بهم العذاب، ومعنى الثاني: وأبصر العذاب إذا نزل بهم، فلا فرق بينهما في المعنى.

* * *

سورة «ص»

في قوله تعالى: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١].

فإن قيل: أين جواب القسم في قوله تعالى: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾؟

قلنا: فيه وجوه:

أحدها: أنه لما ذكر حرفًا من حروف المعجم على سبيل التحدي والتنبيه على الإعجاز كما قيل في كل سورة مفتتحة بحرف أتبعه القسم محذوف الجواب لدلالة التحدي عليه، كأنه قال: والقرآن ذي الذكر إنه لكلام معجز، وكذلك إذا كان الحرف مقسمًا به، كأنه قال: أقسمت بـ«ص» والقرآن ذي الذكر، إن هذا الكلام معجز.

الثاني: أن «ص» خبر مبتدأ محذوف على أنه اسم السورة، كأنه قال: هذه «ص»، يعني هذه السورة التي أعجزت العرب والقرآن ذي الذكر، كما تقول: هذا حاتم والله، تريد هذا هو المشهد بالسخاء والله.

الثالث: أن جواب القسم (كم أهلكنا)، وأصله لكم أهلكنا، فلما طال الكلام حذفت اللام تخفيفًا كما في قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾.

الرابع: أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾، وهو قول الكسائي. وقال الفراء: وهذا لا يستقيم في العربية لتأخره جدًّا عن القسم.

وفي قوله تعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٧].

فإن قيل: ما وجه المناسب والارتباط بين قوله تعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾؟ قلنا: وجه المناسبة بينهما أنه أمر أن يتقوى على الصبر بذكر قوة داود عليه السلام على العبادة والطاعة.

الثاني: أن المعنى عرفهم أن داود عليه السلام مع كرامته وشهرة طاعته وعبادته التي منها صوم يوم دون يوم، وقيام نصف الليل كان شديد الخوف مع عذابي لا يزال باكيًا مستغفرًا، فكيف حال هؤلاء مع أفعالهم؟

وفي قوله تعالى: ﴿**قَالُوا لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ**﴾ [ص:٢٢].

فإن قيل: كيف قال الملكان لما دخلا على داود عليه السلام: ﴿**خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ**﴾، والملائكة لا يوجد منهم البغي والظلم، وكيف قال: ﴿**إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً**﴾ إلى آخره، ولم يكن كما قال؟

قلنا: إنما قالا ذلك على سبيل الفرض والتصوير للمسألة، ومثل ذلك لا يعد كذبًا، كما تقول في تصوير المسائل: زيد له أربعون شاة، وعمرو له أربعون، وأنت تشير إليهما، فخلطاها وحال عليها الحول، كم يجب فيها وليس لهما شيء، وتقول: لي أربعون شاة، ولك أربعون فخلطناها وما لكم شيء.

فإن قيل: كيف حكم داود عليه السلام على المدعي عليه بكونه ظالمًا قبل أن يسمع كلامه؟

قلنا: لم يحكم عليه إلا بعد اعترافه، كذا نقله السدي، إلا أنه حذف ذكر الاعتراف في القصة اختصارًا لدلالة الحلال عليه، كما تقول العرب: أمرته بالتجارة فكسب الأموال، أي: فاتجر فكسب الأموال.

وفي قوله تعالى: ﴿**فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ**﴾ [ص: ٣٢].

فإن قيل: ما معنى تكرار الحب في قوله عليه السلام: ﴿**فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ**﴾، وما معنى تعدينه بـ(عن)، وظاهره أحببت حبًّا مثل حب الخير، كما تقول: أحببت حب زيد، أي: أحببت حبًّا مثل حب زيد؟

قلنا: أحببت في الآية بمعنى آثرت، كما يقول المخير بين شيئين: أحببت هذا، أي: آثرته، وقد جاء بمعنى آثر، قال الله تعالى: ﴿**وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى**﴾ [فصلت: ١٧]، أي: آثروه؛ لأن من أحب شيئًا فقد آثره على غيره؛ و«عن» بمعنى

«على»، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾ [محمد: ٣٨]، فيصير المعنى أي: آثرت حب الخير على ذكر ربي.

الثاني: وهو اختيار الجرجاني صاحب (معاني القرآن) أن أحببت بمعنى قعدت وتأخرت مأخوذ من أحب الجمل إذا برك، ومنه قول الشاعر:

دَعاكَ إِلَيها مُقلَتاها وَجيدُها فَمِلتَ كَما مالَ المُحِبُّ عَلى عَمدِ

فالمحب هنا الجمل، والعمد علة تكون في سنام الجمل، وكل من ترك شيئًا وتجنب أن يفعله فقد قعد عنه، فتأويل الآية: إني قعدت عن ربي لحب الخير، فيكون انتصاب «حب» على أنه مفعول له.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بَعْدِي﴾ [ص:٣٥].

فإن قيل: كيف قال سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بَعْدِي﴾، وهذا أشبه بالحسد والبخل بنعم الله تعالى على عبيده بما لا يضر سليمان عليه السلام؟

قلنا: قال الحسن وقتادة -رحمهما الله: المراد به لا ينبغي لأحد أن يسلبه مني في حياتي، كما فعله الشيطان الذي لبس خاتمه وجلس على كرسيه.

الثاني: أن الله تعالى علم أنه لا يقوم غيره من عبادة بمصالح ذلك الملك، فاقتضت حكمته تخصيصه به، فألهمه أن يسأله تخصيصه به.

الثالث: أنه أراد بذلك ملكًا عظيمًا، فعبر عنه بتلك العبارة، ولم يقصد بذلك إلا عظم الملك وسعته، كما تقول لفلان: ما ليس لأحد مثله من الفضل أو من الفضل أو من المال، وتريد بذلك عظم فضله أو ماله، وإن كان في الناس أمثاله.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

فإن قيل: كيف قال تعالى في وصف أيوب عليه السلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ مع أن الصبر هو ترك الشكوى من ألم البلوى على ما قيل وهو قد شكا؟

قلنا: الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر، ولا تسمى جزعًا لما فيها من إظهار الخضوع

والعبودية لله تعالى والافتقار إليه، ويؤيده قول يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ﴾ [يوسف: ٨٦] مع قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، وقولهم: الصبر ترك الشكوى، يعني إلى العباد.

الثاني: أنه ﷺ إنما طلب الشفاء من الله تعالى بعد ما لم يبق منه إلا قلبه ولسانه خيفة على قومه أن يفتهم الشيطان، بما كان يوسوس إليهم به، ويقول: إنه لو كان أيوب نبيًّا لما ابتلي بما هو فيه، ولدعا الله تعالى بكشف ضره.

وروي أنه ﷺ قال في مناجاته: «**إلهي قد علمت أنه لم يخلف لساني قلبي، ولم يتبع قلبي بصري، ولم يلهني ما ملكت بيميني، ولم آكل إلا ومعي يتيم، ولم أبت شبعان ولا كاسيًا ومعي جائع أو عريان**»، فكشف الله تعالى ضره.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص: ٧٨].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ يدل على أن غاية لعنة الله لإبليس يوم القيامة ثم تنقطع؟

قلنا: كيف تنقطع وقد قال تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ يعني يوم القيامة ﴿أَن لَّعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، وإبليس أظلم الظلمة، ولكن مراده في الآية أن عليه اللعنة في طول مدة الدنيا، فإذا كان يوم القيامة اقترن له باللعنة من أنواع العذاب ما ننسى عنده اللعنة وكأنها انقطعت.

***

سورة الزمر

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾، وكم من كاذب كفار قد هداه الله تعالى فأسلم وصدق؟

قلنا: معناه لا يهديه إلى الإيمان ما دام على كفره وكذبه. وقيل: معناه: لا يهديه إلى حجة يلزم بها المؤمنين.

وفي قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لاَّصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [الزمر: ٤].

فإن قيل: كيف يصلح قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لاَّصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ ردًّا لقول مَن ادعى أن له ولدًا وإبطالاً لذلك، مع أنه كل من نسب إليه ولدًا قال: إنه اصطفاه من خلقه يجعله ولدًا، فاليهود يدعون أنه عزيز، والنصارى يدعون أنه المسيح عليه السلام، وطائفة من مشركي العرب يدعون أن الملائكة بنات الله تعالى؟

قلنا: هذا إن جعل ردًّا على اليهود والنصارى كان معناه: لاصطفى الولد من الملائكة لا من البشر؛ لأن الملائكة أشرف من البشر بلا خلاف بين اليهود ولا بين النصارى، وإن كان ردًّا على مشركي العرب كان معناه: لاصطفى له ولدًا من جنس يخلق كل شيء يريده ليكون ولدًا موصوفًا لصفته، ولم يصطف من الملائكة الذين لا يقدرون على إيجاد جناح بعوضة، ولا يرد على هذا خلق عيسى عليه السلام الطير؛ لأنه ليس بعام، أو لأن معنى خلقه التقدير من الطين، ثم الله تعالى يخلقه حيوانًا بنفخ عيسى عليه السلام وإظهارًا لمعجزته.

وفي قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: ٦].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، وخلق حواء من آدم عليه السلام سابق على خلقتنا منه، فكيف عطفه عليه بكلمة «ثم»؟

قلنا: «ثم» هنا للترتيب في الإخبار لا في الإيجاد؛ كما تقول لصاحبك: أعطيتك اليوم

كذا ثم أعطيتك أمس أكثر منه، أي: ثم أخبرك بكذا، ومنه قول الشاعر:

إن مـــن ســـاد ثـــم ســـاد أبـــوه ثـم قـد سـاد قبـل ذلـك جـده[1]

الثاني: أن «ثم» متعلقة بمعنى واحدة وعاطفة عليه لا على خلقكم، فمعناه خلقكم من نفس واحدة، وأفردت بالإيجاد ثم شفعت بزوج.

الثالث: أن «ثم» على ظاهرها؛ لأن الله تعالى خلق آدم ثم أخرج أولاده من ظهره كالذر، وأخذ عليهم الميثاق ثم ردهم إلى ظهره، ثم خلق منه حواء، فالمراد بقوله تعالى: ﴿**خَلَقَكُم**﴾ خلقًا بعد أخذ الميثاق دفعة واحدة؛ لأن هذا الخلق الذي نحن فيه بالتوالد والتناسل.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَأَنْزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ**﴾ [الزمر: ٦].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿**وَأَنْزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ**﴾ مع أن الأنعام مخلوقة في الأرض لا منزلة من السماء؟

قلنا: قيل: إن الله تعالى خلق الأزواج الثمانية في الجنة، ثم أنزلها على آدم عليه السلام بعد إنزاله.

الثاني: أن الله تعالى أنزل الماء من السماء، والأنعام لا توجد إلا بوجود النبات، والنبات لا يوجد إلا بوجود الماء، فكأن الأنعام منزلة من السماء، ونظيره قوله تعالى: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ**﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وإنما أنزل الماء الذي لا يوجد القطن والكتان والصوف إلا به.

وفي قوله تعالى: ﴿**لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الزمر: ٤٤].

فإن قيل: كيف قال تعالى في وصف الذي جاء بالصدق وصدق به: ﴿**لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ مع أنه ﷻ يكفر عنهم سيئ أعمالهم ويجزيهم بحسنها أيضًا؟

---

(١) ديوان امرئ القيس، وهو مطلع قصيدة من سبعة أبيات.

قلنا: قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه في سورة «التوبة».

وفي قوله تعالى: ﴿قُل لله الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الزمر: ٤٤].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿قُل لله الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ مع أنه جاء في الأخبار أن للأنبياء والعلماء والشهداء والأطفال شفاعة يوم القيامة؟

قلنا: معناه أن أحدًا لا يملكها إلا بتمليكه، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وفي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الزمر: ٤٩].

فإن قيل: كيف ذكر الضمير في أوتيته وهو للنعمة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾؟

قلنا: إنما ذكره نظرًا للمعنى؛ لأن معنى نعمة شيئًا من النعمة وقسمًا منها، أو لأن النعمة والإنعام واحد.

وفي قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾، والقرآن كله حسن؟

قلنا: معناه اتبعوا أحسن وحي أو كتاب أنزل إليكم من ربكم وهو القرآن كله، وقيل: أحسن القرآن الآيات المحكمات. وقيل: أحسنه كل آية تضمنت أمرًا بطاعة وإحسان، وقد سبق نظير هذه الآية في سورة «الأعراف» في قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥]، والأجوبة المذكورة ثم تصلح هنا، وكذا الأجوبة المذكورة هنا تصلح ثمة إلا الجواب الأول.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾

مع أن الوحي الموحي إليهم جماعة، ولما أوحى إلى من قبله لم يكن في الوحي إليهم خطابه؟

قلنا: معناه ولقد أوحي إلى كل واحد منك ومنهم لئن أشركت.

الثاني: أن فيه إضمارًا تقديره: ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك التوحيد، ثم ابتدأ فقال: لئن أشركت.

الثالث: أن فيه تقديمًا وتأخيرًا تقديره: ولقد أوحي إليك لئن أشركت، وكذلك أوحي إلى الذين من قبلك.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا**﴾ [الزمر: ٧١].

فإن قيل: كيف عبَّر سبحانه عن الذهاب بأهل الجنة والنار بلفظ السوق في قوله تعالى: ﴿**وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ وفيه نوع إهانة؟!

قلنا: المراد بسوق أهل النار طردهم إليها بالهوان والعنف، كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل، والمراد بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم حثًّا وإسراعًا بهم إلى دار الكرامة والرضوان، كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على السلطان؛ فشتان ما بين السوقين.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا**﴾ [الزمر: ٧٣].

فإن قيل: كيف قال تعالى في وصف النار: ﴿**فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا**﴾ بغير «واو»، وقال في صفة الجنة: ﴿**وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا**﴾ بالواو؟

قلنا: فيه وجوه:

أحدها: أنها زائدة، قاله الفراء وغيره.

الثاني: أنها واو الثمانية، وأبواب الجنة ثمانية.

الثالث: أنها واو الحال، معناه: جاءوها وقد فتحت أبوابها قبل مجيئهم، بخلاف أبواب النار؛ فإنها إنما تفتح عند مجيئهم، والحكمة في ذلك من وجوه:

أحدها: أن يستعجل أهل الجنة الفرح والسرور إذا رأوا الأبواب مفتحة، وأهل النار

يأتون النار وأبوابها مغلقة ليكون أشد لحرها.

الثاني: أن الوقف على الباب المغلق نوع ذل وهوان، فصين عنه أهل الجنة لا أهل النار.

الثالث: أن الكريم يعجل المثوبة ويؤخر العقوبة، فلو وجد أهل الجنة بابها مغلقًا لأثر انتظار فتحه في كمال الكريم بخلاف أهل الدار.

***

سورة غافر «المؤمن»

في قوله تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر: ٤].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مع أن الذين آمنوا يجادلون أيضًا فيها: هل هي منسوخة أم محكمة؟ وهل فيها مجاز أم كلها حقيقة؟ وهل هي مخلوقة أم قديمة؟ وغير ذلك.

قلنا: المراد الجدال فيها بالتكذيب ودفعها بالباطل والطعن بقصد إدحاض الحق وإطفاء نور الله تعالى، ويدل عليه قوله تعالى عقيبه: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [غافر: ٥].

وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [غافر: ٧].

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى في وصف حملة العرش: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، ولا يخفى على أحد أن حملة العرش يؤمنون بالله تعالى؟

قلنا: فائدته إظهار شرف الإيمان وفضله والترغيب فيه، كما وصف الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- بالصلاح والإيمان في غير موضع من كتابه لذلك، وكما عقب أعمال الخير بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ [غافر: ١١].

فإن قيل: في قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ كيف صح أن يسمي خلقهم أمواتًا إماتة؟

قلنا: هذا كما تقول: سبحان من صغر جسم البعوضة وكبر جسم الفيل، وكما تقول للحفار: ضيق فم الركية ووسع أسفلها، وليس فيهما نقل من كبر إلى صغر، ومن صغر إلى كبر، ولا من سعة إلى ضيق، ولا من ضيق إلى سعة، وإنما أردت الإنشاء على تلك الصفات، والسبب في صحة أن الصغر والكبر جائزان معًا على ذات المصنوع الواحد من غير ترجيح لأحدهما، وكذلك الضيق والسعة، وإذا اختار الصانع أحد الجائزين وهو متمكن منهما على السواء؛ فقد صرف المصنوع عن الجائز الآخر، فجعل صرفه عنه كنقله منه.

وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لاَ يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ [غافر: ١٦].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿لاَ يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ بيان وتقرير لبروزهم في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ﴾، والله تعالى لا يخفى عليه شيء برزوا أو لم يبرزوا؟

قلنا: معناه لا يخفى على الله منهم شيء في اعتقادهم أيضًا، فإنهم كانوا في الدنيا يتوهمون إذا تستروا بالحيطان والحجب لا يراهم الله، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَلَكِن ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت:٢٢].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨].

فإن قيل: كيف قال المؤمن في حق موسى عليه السلام: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ مع أنه صادق في زعم القائل لهذا القول، وفي نفس الأمر أيضًا، ويلزم من ذلك أن يصيبهم جميع ما وعدهم لا بعضه فقط؟

قلنا: فيه وجوه:

أحدها: أن لفظة «بعض» صلة.

الثاني: أنها بمعنى «كل»، كما في قول الشاعر:

إِنَّ الأُمــورَ إِذا الأَحــداثُ دبّرهــا دونَ الشَّيوخ تَرى في بَعضِها خَللا[١]

ومنه قول لبيد:

أَوَلَم تَكُــن تَــدري نَــوارُ بِــأَنَّني وَصّــالُ عَقــدِ حَبائِــلٍ جَــذّامُها
تَــرّاكُ أَمكِنَــةٍ إِذا لَم أَرضَــها أَو يَعتَلِق بَعضَ النُّفوسِ حِمامُها[٢]

قلنا: ولقائل أن يقول: إن لفضة «بعض» في البيتين على حقيقتها، وكنى لبيد ببعض النفوس عن نفسه، كأنه قال: أتركها إلى أن أموت، وكذا فسَّره ابن الأنباري على أن أبا عبيدة قال: إنَّ بعضًا في الآية بمعنى «كل»، واستدل ببيت لبيد، وأنكر الزمخشري على أبي عبيدة هذا التفسير على أن غير أبي عبيدة قال في قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام لأمته: ﴿وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أن بعضًا فيه بمعنى «كل».

الثالث: أنها على أصلها.

ثم في ذلك وجهان:

أحدهما: أنه وعدهم النجاة إن آمنوا والهلاك إن كفروا، فذكر لفظة «بعض»؛ لأنهم على إحدى الحالتين لا محالة.

الثاني: أنه وعدهم على كفرهم الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة، وكان هلاكهم في الدنيا بعضًا، فمراده يصيبكم في الدنيا بعض الذي يعدكم.

الرابع: أنه ذكر البعض بطريق التنزل والتلطف وإمحاض النصيحة من غير مبالغة ولا تأكيد ليسمعوا منه ولا يتهموه، فيردوا عليه وينسبوه إلى ميل محاباة بموسى عليه السلام، كأنه قال: أقل ما يصيبكم البعض وفيه كفاية، ونظيره قول الشاعر:

قــد يُــدرِكُ المتــأني بَعــضَ حاجَتِــهِ وقد يكــونُ مع المُستَعجِلِ الزَّلَلُ[٣]

كأنه يقول: أقل ما يكون في التأني إدراك بعض المطلوب، وأقل ما يكون في الاستعجال الزلل، فقد بان فضل التأني على العجلة بما لا يقدر الخصم على دفعه ورده،

---

(١) ديوان الخريمي مطلع قصيدة من بيتين.
(٢) ديوان لبيد بن ربيعة من قصيدة مطلعها: «عَفَتِ الدِّيارُ مَحَلُّها فَمُقامُها...».
(٣) ديوان القطامي التغلبي من قصيدة مطلعها: «إِنّا مُحَيّوكَ فَاسلَم أَيُّها الطَلَلُ».

والوجه الرابع هو اختيار الزمخشري -رحمه الله عليه.

وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ [غافر: ٣٣].

فإن قيل: التولي والإدبار واحد؛ فما فائدة قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾؟

قلنا: هو تأكيد كقوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦]، ونظائره كثيرة.

الثاني: أنه استثارة لحميتهم واستجلاب لأنفتهم لما في لفظ مدبرين من التعريض بذكر الدبر، فيصير نظير قوله تعالى: ﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ﴾ [غافر:٣٦].

فإن قيل: ما فائدة التكرار في قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ۞ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾، وهلا قال: أبلغ أسباب السموات؟ أي: أبوابها وطرقها.

قلنا: إذا أبهم الشيء ثم أوضح كان تفخيمًا لشأنه وتعظيمًا لمكانه، فلما أراد تفخيم ما أمل بلوغه من أسباب السموات أبهمها ثم أوضحها.

وفي قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا﴾ [غافر: ٤٠].

فإن قيل: مثل السيئة سيئة؛ فما معنى قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا﴾؟

قلنا: معناه أن جزاء السيئة له حساب وتقدير لا يزيد على المقدار المستحق، فأما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير حساب، كما قال تعالى في آخر الآية.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] ينافي ذلك.

قلنا: ذلك لمنع النقصان لا لمنع الزيادة، كما قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ [غافر: ٤٩].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾، ولم يقل: وقال الذين

في النار لخزنتها، مع أنه أخصر؟

قلنا: لأن في ذكر جهنم تهويلاً وتفظيعًا، وقيل: إن جهنم هي أبعد النار قعرًا، وخزنتها أعلى الملائكة الموكلين بالنار مرتبة، فإنما قصدهم أهل النار بطلب الدعاء منهم لذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ [غافر: ٧٤].

فإن قيل: كيف قال المشركون: ﴿لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ مع قولهم: ﴿هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ﴾.

قلنا: معناه أن الأصنام التي كنا نعيدها لم تكن شيئًا؛ لأنها لا تنفع ولا تضر.

الثاني: أنهم قالوا كذبًا وجحودًا؛ كقولهم: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٢]، ولم يقل: وفي الفلك تحملون، كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠]؟

قلنا: معنى الوعاء ومعنى الاستعلاء كلاهما صحيح في الفلك؛ لأنه وعاء لمن يكون فيه وحمولة لمن يستعليه، فلما صح المعنيان استقامت العبارتان معًا.

سورة فصلت

في قوله تعالى: ﴿وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥].

فإن قيل: ما فائدة زيادة «من» في قوله تعالى: ﴿وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ مع أن المعنى حاصل بقولة تعالى: ﴿وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾؟

قلنا: لو قيل كذلك لكان المعنى أن حجابًا حاصل وسط الجهتين، وأما بزيادة «من»، فمعناه أن الحجاب ابتداؤه منا ومنك، فالمسافة المتوسطة بيننا وبينك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ يدل على أن السموات والأرض وما بينهما خلقت في ثمانية أيام، وقال تعالى في سورة «الفرقان»: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾؛ فكيف التوفيق بينهما؟

قلنا: معنى قوله تعالى: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ في تتمة أربعة أيام؛ لأن اليومين اللذين خلق فيهما الأرض من جملة الأربعة، أو معناه كل ذلك في أربعة أيام يعني خلق الأرض وما ذكر بعدها، فصار المجموع ستة، وهذا لا اختلاف فيه بين المفسرين.

فإن قيل: السموات وما فيها أعظم من الأرض وما فيها بأضعاف مضاعفة، فما الحكمة في أن الله خلق الأرض وما فيها في أربعة أيام، و السموات وما فيها في يومين؟

قلنا: لأن السموات وما فيها من عالم الغيب ومن عالم الملكوت ومن عالم الأمر والأرض وما فيها من عالم الشهادة والملك، وخلق الأول أسرع من الثاني، ووجه آخر وهو أنه فعل ذلك ليعلم أن الخلق على سبيل التدريج والتمهيل في الأرض وما فيها لم يكن العجز عن خلقها دفعة واحدة؛ بل كان لمصالح لا تحصل إلا بذلك، ولهذه الحكمة خلق العالم الأكبر في ستة أيام، والعالم الأصغر وهو الإنسان في ستة أشهر.

وفي قوله تعالى: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [فصلت: ٢٤].

فإن قيل: كيف قال تعالى في وصف أهل النار: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ مع أنهم إن لم يصبروا على عذاب النار وجزعوا؛ فالنار مثوى لهم أيضًا.

قلنا: فيه إضمار تقديره: فإن يصبروا أو لا يصبروا؛ فالنار مثوى لهم على كل حال، ولا ينفعهم الصبر في الآخرة، كما ينفع الصبر في الدنيا، ولهذا قيل: الصبر مفتاح الفرج، وقيل: من صبر ظفر.

الثاني: أن هذا جواب لقول المشركين في حث بعضهم لبعض على إدامة عبادة الأصنام، ﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾ [ص:٦]، فقال الله تعالى: فإن يصبروا على عبادة الأصنام في الدنيا؛ فالنار مثوى لهم في العقبى.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٧].

فإن قيل: كيف قال تعالى في وصف الكفار: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بأسوأ أعمالهم، مع أنهم يجزون بسيئ أعمالهم أيضًا؟

قلنا: قد سبق نظير هذا السؤال في آخر سورة «التوبة»، والجواب الأول هناك يصلح جوابًا هنا.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿وَلاَ لِلْقَمَرِ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ﴾ وهو مستفاد من الأول بالطريق الأول؟

قلنا: فائدته ثبوت الحكم بأقوى الدليلين وهو النص، والله أعلم.

سورة الشورى

في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الشورى: ٣].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ بلفظ المضارع، والوحي إلى مَن قبل النبي ﷺ ماضٍ.

قلنا: قال الزمخشري: قصد بلفظ المضارع كون ذلك عادة وسنة الله تعالى، وهذا لا يوجد في لفظ الماضي.

قلت: ويحتمل أن يكون باعتبار وضع المضارع موضع الماضي، كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ﴾ أو بإضمار وأوحى إلى الذين من قبلك.

وفي قوله تعالى: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١١].

فإن قيل: إلى ماذا يرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي: يكثركم، وقيل: يخلقكم، وقيل: يعيشكم فيه؟

قلنا: معناه في هذا التدبير أو في الجعل المذكور، وقيل: في الرحم الذي دل عليه ذكر الأزواج.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وظاهره يقتضي إثبات المثل ونفي مثل المثل، كما يقال: ليس كدار زيد دار. فإنه يقتضي وجود الدار لزيد؟

قلنا: فيه وجوه:

أحدها: أن المثل في لغة العرب كناية عن الذات، ومنه قولهم: مثلي لا يقال له كذا، ومثلك لا يليق به كذا، فمعناه ليس كهو شيء.

الثاني: أن الكاف زائدة للتأكيد، والمعنى ليس كمثله شيء.

الثالث: أن مثل زائدة، فيصير المعنى ليس كهو شيء، كما في الوجه الأول، والفرق بين الوجهين أن المثل في الوجه الأول كناية عن الذات، وفي الوجه الثالث زائد مطرح كأنه لم يذكر.

وفي قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، ولم يقل: إلا مودة القربى، أي: القرابة، أو إلا الموجة القربى.

قلنا: جعلوا محلاً للمودة ومقرًا لها للمبالغة، كأنه قال: إلا المودة الثابتة المستقرة في القربى، كما يقال: في آل فلان مودة، ولي فيهم هوى وحب شديد.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾

[الشورى:٢٩].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، والدواب إنما هي في الأرض فقط؟

قلنا: فيهما بمعنى فيها، باعتبار إطلاق لفظ التثنية على المفرد، كما في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، وإنما يخرج من أحدهما وهو الملح.

وقيل: إن الملائكة لهم دبيب مع طيرانهم أيضًا وهو مبثوثون في السماء، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ﴾، فتقييده بالأرض يدل على وجود الدابة في غير الأرض من حيث المفهوم.

وفي قوله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَّشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَّشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩].

فإن قيل: كيف قدم ﷻ الإناث على الذكور في قوله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَّشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَّشَاءُ الذُّكُورَ﴾ مع تقدمهم عليهن، ثم رجع فقدمهم عليهن، ولم نكَّر الإناث وعرَّف الذكور؟

قلنا: إنما قدَّم الإناث؛ لأن الآية إنما سبقت لبيان عظمة ملكه ونفاذ مشيئته، وأنه فاعل ما يشاء عبيده، فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما لا يشاؤه عبيده أهم، والأهم واجب التقديم، فلما قدمهن وأخر الذكور لذلك المعنى تدارك تأخيرهم، وهم أحقاء بالتقديم بتعريفهم؛ لأن التعريف تنويه وتشهير، كأنه قال: ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المشهورين الذين لا يخفون على أحد، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير، فعرف أن تقديمهن لم يكن لتقدمهن، ولكن لمقتضى آخر فقال تعالى: ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾، وقال: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١].

حجاب الآية: كيف يقال: إنَّ الله تعالى كلَّم محمدًا ﷺ ليلة المعراج مواجهة بغير حجاب ولا واسطة، وقد خصَّ الله تعالى تكليمه للبشر في طريق الوحي وهو الإلهام، كما كلَّم أم موسى، والإسماع من وراء حجاب كما كلَّم موسى عليه السلام، وكما كلَّم الأمم بواسطة الرسل؟

قلنا: قيل: المراد بالوحي الأول هنا الإشارة، ومنه قولهم: وحي العين ووحي الحاجب، أي: إشارتها، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا﴾، فتكليمه لمحمد ﷺ ليلة المعراج كان مواجهة بالإشارة.

وفي قوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ كيف كان لا يعلم الإيمان قبل أن يوحى إليه، والإيمان هو التصديق بوجود الصانع وتوحيده، والأنبياء -

عليهم الصلاة والسلام- كلهم كانوا مؤمنين بالله قبل أن يوحى إليهم بأدلة عقولهم؟

قلنا: المراد بالإيمان هنا شرائع الإيمان وأحكامه؛ كالصلاة والصوم ونحوهما، وقيل: المراد به الكلمة التي بها دعوة الإيمان والتوحيد، وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله، والإيمان بهذا التفسير إنما علمه بالوحي كما علم الكتاب وهو القرآن لا بالعقل.

سورة الزخرف

في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، ولم يقل: قلناه أو أنزلناه، والقرآن ليس بمجعول؛ لأن الجعل هو الخلق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾؟

قلنا: الجعل أيضًا يأتي بمعنى القول، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لله الْبَنَاتِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لله أَنْدَادًا﴾ [إبراهيم: ٣٠]، أي: قالوا ووصفوا لا أنهم خلقوا كذلك هنا.

وفي قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ [الزخرف: ٤٥].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا﴾، والنبي ﷺ ما لقيهم حتى يسألهم؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: واسأل أتباع من أو أمة من أرسلنا من قبلك.

الثاني: أنه مجاز عن النظر في أديانهم والبحث عن مللهم هل فيها ذلك.

الثالث: أن النبي ﷺ حشر له الأنبياء -عليهم السلام- ليلة المعراج، فلقيهم وأمهم في مسجد بيت المقدس، فلما فرغ من الصلاة نزلت عليه هذه الآية والأنبياء حاضرون، فقال: لا أسأل قد كفيت، وقيل: إنه خطاب له والمراد أمته.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف: ٤٨].

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ يعني

الآيات التسع التي جاء بها موسى عليه السلام، فإن كان المراد به أن كل واحدة منهن أكبر مما سواها لزم أن يكون كل واحدة فاضلة ومفضولة، وإن كان المراد به أن كل واحدة منهن أكبر من أخت معينة لها، فأيتها هي الكبرى وأيتها هي الصغرى؟

قلنا: المراد بذلك أنهن موصوفات بالكبرى لا يكدن يتفاوتن فيه، ونظيره بيت الحماسة:

مَن تلق منهم تقل لاقيت سيِّدهم مثل النجوم التي يسرى بها الساري

وفي قوله تعالى: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف: ٦٣].

فإن قيل: كيف قال عيسى عليه السلام لأمته: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾؟

قلنا: كانوا يختلفون فيما يعنيهم من أمر الديانات وفيما لا يعنيهم من أمور أخرى، فكان يبيِّن لهم الشرائع والأحكام خاصة. وقيل: إنَّ البعض هنا بمعنى الكل كما سبق في سورة «المؤمن» في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [الزخرف:١].

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ بعد قوله: ﴿بَغْتَةً﴾ أي: فجأة.

قلنا: فائدته أنها تأتيهم وهم غافلون مشغولون بأمور دنياهم، كما قال تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: ٤٩]، فلولا قوله: ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ جاز أن يأتيهم بغتة وهم فطنون حذرون مستعدون لها.

وفي قوله تعالى: ﴿لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥].

فإن قيل: كيف وصف أهل النار فيها بكونهم مبلسين، والمبلس هو الآيس من الرحمة والفرج، ثم قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، فطلبوا الفرج بالموت؟

قلنا: تلك أزمنة متطاولة وأحقاب ممتدة، فتخلف فيها أحوالهم، فيغلب عليهم اليأس تارة فيسكنون، ويشتد عليهم من ألم العذاب تارة فيستغيثون.

وفي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾ ظاهره يقتضي تعدد الآلهة؛ لأن النكرة إذا أعيدت تعددت؛ كقوله: له عليَّ درهم ودرهم، وأنت طالق وطالق، ولهذا قال ابن عباس -رضي الله عنهما: لن يغلب عسر يسرين؟

قلنا: الإله هنا بمعنى المعبود بالنقل، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ﴾، فصار المعنى: وهو الذي في السماء معبود وفي الأرض معبود، والمغاير ثابتة بين معبوديته في السماء ومعبوديته في الأرض؛ لأن العبودية من الأمور الإضافية، فيكفي في تغايرها التغاير من أحد الطرفين، فإذا كان العابد في السماء غير العابد في الأرض صدق أن معبوديته في السماء غير معبوديته في الأرض مع أن المعهود واحد.

سورة الدخان

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلاَءِ لَيَقُولُونَ ۞ إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَى﴾ [الدخان: ٣٤، ٣٥].

فإن قيل: الخلاف بين النبي ﷺ ومنكري البعث إنما كان في الحياة بعد الموت لا في الموت، فكيف قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلاَءِ لَيَقُولُونَ ۞ إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَى﴾، ولم يقيل: إلا حياتنا، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٢٩]، وما معنى وصف الموتة بالأولى كأنهم وعدوا موتة أخرى حتى نفوها وجحدوها وأثبتوا الموتة الأولى؟

قلنا: لما وعدوا موتة تكون بعدها حياة نفوا ذلك، كأنهم قالوا: لا نقع في الوجود موتة تكون بعدها حياة إلا ما كنا فيه من موتة العدم وبعثنا منه إلى حياة الوجود. وقيل: إنهم نفوا بذلك الموتة الثانية في القبر بعد إحيائهم لسؤال منكر ونكير.

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٨].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾، والعذاب لا يصب، وإنما يصب الحميم كما قال في موضع آخر: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾.

قلنا: هو استعارة ليكون الوعد أهول وأهيب، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الأنعام: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ [الفجر: ١٣]، وقول الشاعر:

صبت عليهم صروف الدهر من صبب

وفي قوله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الدخان: ٥٣].

فإن قيل: كيف وعد الله أهل الجنة بلبس الإستبرق، وهو غليظ الديباج في قوله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ مع أن لبس الغليظ من الديباج عند السعداء من أهل الدنيا عيب ونقص؟

قلنا: كما أن رقيق الجنة وهو السندس لا يماثل رقيق ديباج الدنيا إلا في الاسم فقط، فكذلك غليظ ديباج الجنة، وقيل: السندس لباس السادة من أهل الجنة، والإستبرق لباس العبيد والخدم إظهارًا لتفاوت المراتب.

وفي قوله تعالى: ﴿لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى﴾ [الدخان: ٥٦].

فإن قيل: كيف قال تعالى في وصف أهل الجنة: ﴿لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى﴾ مع أن الموتة الأولى لم يذوقها في الجنة؟

قلنا: قال الزجاج والفراء: «إلا» هنا بمعنى «سوى»، كما في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

الثاني: أن «إلا» بمعنى «بعد»، كما قال بعضهم في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

الثالث: أن السعداء إذا حضرتهم الوفاة كشف لهم الغطاء وعرضت عليهم منازلهم ومقاماتهم في الجنة، وتلذذوا في حال النزع بروحها وريحانها، فكأنهم ماتوا في الجنة، وهذا قول ابن قتيبة -رحمه الله.

سورة الجاثية

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥].

فإن قيل: كيف طابق الجواب السؤال في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾؟

قلنا: وجه المطابقة أنهم ألزموا بما هم مقرون به من أن الله تعالى هو الذي أحياهم أولاً ثم يميتهم، ومن كان قادرًا على ذلك كان قادرًا على جمعهم يوم القيامة، فيكون قادرًا على إحياء آبائهم.

وفي قوله تعالى: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ [الجاثية: ٢٨].

فإن قيل: كيف أضاف الكتاب إلى الأمة وإليه في قوله تعالى: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾، ثم قال: ﴿هَذَا كِتَابُنَا﴾.

قلنا: الإضافة تصح بأدنى ملابسة، وقد لابسهم الكتاب بكون أعمالهم لا مثبتة فيه، ولابسة بكونه مالكه وكونه آمرًا الملائكة أن يكتبوا فيه أعمالهم.

سورة الأحقاف

في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف:١٦].

فإن قيل: كيف قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ مع أن حسن ما عملوا يتقبل عنهم أيضًا؟

قلنا: أحسن بمعنى حسن، وقد سبق نظيره في سورة «الروم».

فإن قيل: كيف قال تعالى في وصف الفريقين: ﴿لِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ مع أن أهل

النار لهم دركات لا درجات؟

قلنا: الدرجات الطبقات من المراتب مطلقًا من غير اختصاص.

الثاني: أن فيه إضمارًا تقديره: ولكل فريق درجات أو دركات مما علموا، إلا أنه حذفه اختصارًا لدلالة المذكور عليه.

وفي قوله تعالى: ﴿**قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ [الأحقاف: ٢٢].

فإن قيل: كيف طابق الجواب السؤال في قوله تعالى: ﴿**فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۞ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللهِ**﴾؟

قلنا: طابقه من حيث إن قولهم ذلك استعجال للعذاب الذي تواعدهم به بدليل قوله تعالى بعده: ﴿**بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ**﴾، فقال لهم: لا علم لي بوقت تعذيبكم، بل الله تعالى هو العالم به وحده.

وفي قوله تعالى: ﴿**تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ**﴾ [الأحقاف:٢٥].

فإن قيل: كيف قال تعالى في وصف الريح: ﴿**تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ**﴾، وكم من شيء لم تدمره؟

قلنا: معناه تدمر كل شيء به من أموال قوم عاد وأملاكهم.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿**يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ**﴾ [الأحقاف: ٣١]، ولم يقل: يغفر لكم ذنوبكم.

قلنا: لأن للذنوب ما لا يغفر بالإيمان كمظالم العباد ونحوها.

* * *

سورة محمد ﷺ

في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ [محمد: ٣].

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ يسبق ضرب مثل؟

قلنا: معناه كذلك يبيِّن الله للناس أمثال الباطل مثلاً لعمل الكفار، واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين أو أنه جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفار، وتكفير السيئات مثلاً لفوز المؤمنين.

وفي قوله تعالى: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٥].

فإن قيل: كيف قال تعالى في حق الشهداء بعدما قتلوا في سبيل الله: ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾، والهداية إنما تكون قبل الموت لا بعده؟

قلنا: معناه سيهديهم إلى محاجة منكر وتكبر، وقيل: سيهديهم يوم القيامة إلى طريق الجنة.

وفي قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ [محمد: ٥].

فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾؟

قلنا: قال الفراء: معناه أمن كان في هذا النعيم كمن هو خالد في النار، وقال غيره: تقديره: مثل الجنة الموصوفة كمثل جزاء من هو خالد في النار، فحذف منه ذلك إيجازًا واختصارًا.

وفي قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ﴾ [محمد: ١٩].

فإن قيل: كيف قال تبارك وتعالى للنبي ﷺ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ﴾، وهو عالم بذلك قبل أن يوحى إليه وبعده؟

قلنا: معناه اثبت على ذلك العلم، وقال الزجاج: الخطاب له ﷺ، والمراد أمته، كما ذكرنا في أول سورة «الأحزاب».

وفي قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾، وهم لم يروا ذلك؟

قلنا: معناه أولم يعلموا ذلك بأخبار من قبلهم أو بوروده في القرآن الذي هو معجزة في نفسه، ونظيره قوله تعالى للنبي ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور: ٤١]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ [النور: ٤٣]، ونظائره كثيرة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ مع أن الملائكة أحياء والجن أحياء، وليسوا مخلوقين من الماء، بل من النور والنار، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥]، وكذا آدم مخلوق من التراب، وناقة صالح مخلوقة من الحجر؟

قلنا: المراد به البعض وهو الحيوان، كما في قوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس: ٢٢]، ونظائره كثيرة.

الثاني: أن الكل مخلوق من الماء، ولكن البعض بواسطة، والبعض بغير واسطة، ولهذا قيل: إنه خلق الملائكة من ريح خلقها من الماء، وخلق لهن من نار خلقها من الماء، وخلق آدم من تراب خلقه من الماء.

وفي قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء:٣٧].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ﴾ بعد قوله: ﴿خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾، وكأنه تكليف بما لا يطاق؟ قلنا: هذا كما ركب فيه الشهوة وأمره أن يغلبها؛ لأنه أعطاه القدرة التي يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة.

سورة الفتح

في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١].

فإن قيل: كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة، فقال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۞ لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ﴾ [الفتح: ١].

قلنا: لم يجعله على المغفرة، بل لاجتماع ما وعده من الأمور الأربعة، وهي المغفرة وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز؛ وقبل الفتح لم يكن إتمام النعمة والنصر سببًا للمغفرة من حيث إنه جهاد للعدو.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ إن كان المراد بما تأخر ذنبًا يتأخر وجوده عن الخطاب بهذه الآية، فهو معدوم عند نزولها، فكيف يغفر الذنب المعدوم، وإن كان المراد به ذنبًا وجد قبل نزولها، فهو متقدم؛ فيكف سمَّاه متأخرًا؟

قلنا: المراد بما تقدم قصة مارية، وبما تأخر قصة امرأة زيد، وقيل: المراد بما تقدم ما وجد منه، وبما تأخر ما لم يوجد منه على معنى أنه موعود بمغفرته على تقدير وجوده، أو على طريق المبالغة؛ كقولهم: فلان يضرب من يلقاه ومن لا يلقاه؛ بمعنى يضرب كل أحد، فكذا هنا معناه ليغفر لك الله كل ذنب؛ فالحاصل أن الذنب المتأخر متقدم على نزول الآية، وإن كان متأخرًا بالنسبة إلى شيء آخر قبله أو متأخرًا عن نزولها وهو موعود بمغفرته، أو على طريق المبالغة كما بيَّنا.

فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾، وهو مهدي إلى الصراط المستقيم، ومهدي به أمته أيضًا؟

قلنا: معناه ويزيدك هدى؛ وقيل: ويثبتك على الهدى، وقيل: معناه ويهديك صراطًا مستقيمًا في كل أمر تحاوله.

وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

فإن قيل: كيف يقال: إن الإيمان لا يقبل الزيادة والنقصان، وقد قال الله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾؟

قلنا: الإيمان الذي يقال: إنه لا يقبل الزيادة والنقصان، فأما الإيمان بمعنى الأمن أو اليقين أو التصديق؛ فإنه يقبلها، وهو في الآية بمعنى التصديق؛ لأنهم بسبب السكينة التي هي الطمأنينة وبرد اليقين كلما نزلت فريضة وشريعة صدقوا بها فازدادوا تصديقًا مع تصدقهم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦].

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿وَأَهْلَهَا﴾ بعد قوله: ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا﴾؟

قلنا: الضمير في «بها» لكلمة التوحيد، وفي أهلها للتقوى فلا تكرار.

فإن قيل: ما وجه تعليق الدخول بمشيئة الله تعالى في أخبار ﷻ حتى قال: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللهُ﴾ [الفتح: ٢٧]؟

قلنا: فيه وجوه:

أحدها: أن «إن» بمعنى «إذ»، كما في قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

الثاني: أنه استثناء من الله تعالى فيما يعلم تعليمًا لعباده أن يستثنوا فيما لا يعلمون.

الثالث: أنه على سبيل الحكاية لرؤيا النبي ﷺ، فإنه رأى أن قائلاً يقول له: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾.

الرابع: أن الاستثناء متعلق بقوله تعالى: ﴿آمِنِينَ﴾، فأما الدخول فيه تعليق.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ بعد قوله: ﴿آمِنِينَ﴾؟

قلنا: معناه آمنين في حال الدخول لا تخافون عدوكم أن يخرجكم منه في المستقبل.

وفي قوله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ تعليل لماذا؟

قلنا: لما دلَّ عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وقوتهم، كأنه قال: إنما كثرهم وقواهم ليغيظ بهم الكفار.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، وكل أصحاب النبي ﷺ موصوفون بالإيمان والعمل الصالح وبغيرهما من الصفات الحميدة التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية؛ فما معنى التبعيض هنا؟

قلنا: «من» هنا لبيان الجنس لا التبعيض كما في قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾.

سورة الحجرات

في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات:١].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾، والمراد به نهيم أن يتقدموا على رسول الله ﷺ بقول أو فعل، لا أن يقدموا غيرهم؟

قلنا: قدم هنا لازم بمعنى تقدم كما في قولهم: بين وتبين، وفكر وتفكر، ووقف وتوقف، ومنه قول الشاعر:

إذا نحن سرنا سارت الناس خلفنا ... وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

أي: توقفوا، وقيل: معناه: لا تقدموا فعلاً قبل أمر رسول الله ﷺ.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: ٢].

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ بعد قوله: ﴿لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾؟

قلنا: فائدته تحريم الجهر في مخاطبته ﷺ باسمه نحو قولهم: يا محمد ويا أحمد، فهو أمر لهم بتوقيره وتعظيمه ﷺ في المخاطبة، وأن يقولوا: يا رسول الله ويا نبي الله، ونحو ذلك، ونظيره قوله تعالى: ﴿لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾.

فإن قيل: كيف قال: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ أي: مخافة أن تحبط أعمالكم مع أن الأعمال إنما تحبط بالكفر لا بغيره من المعاصي، ورفع الصوت في مجلس النبي ﷺ ليس بكفر، كيف وقد روي أن الآية نزلت في أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- لما رفعا أصواتهما بين يدي رسول الله ﷺ وأنها نزلت في ثابت بن قيس بن شماس وكان جهوري الصوت، فربما تأذى رسول الله ﷺ بصوته؟

قلنا: معناه: لا تستخفوا به، فإن الاستخفاف به ربما أدى خطؤه إلى عمده، وعمده كفر يحبط العمل. وقيل: حبوط العمل مجاز عن نقصان المنزلة وانحطاط المرتبة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ﴾ [الحجرات: ٧].

فإن قيل: ما وجه الارتباط والتعليق بين قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ﴾ وبين ما قبله؟

قلنا: معناه: فاتركوا عبادة الجاهلية، فإن الله تعالى لم يترككم عليها، ولكن الله حبَّب إليكم الإيمان. وقيل: معناه فتثبتوا في الأمور كما يليق بالإيمان، فإن الله حبَّب إليكم الإيمان.

فإن قيل: إن كان الفسوق والعصيان بمعنى واحد، فما فائدة الجمع بينهما، وإن كان العصيان أعم من الفسوق فذكره مغنٍ عن ذكر الفسوق لدخوله فيه، فما فائدة الجمع بينهما؟

قلنا: قال ابن عباس -رضي الله عنهما: المراد بالفسوق هنا الكذب، وبالعصيان بقية المعاصي، وإنما أفرد الكذب بالذكر لأنه سبب نزول الآية.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾

[الحجرات:١٤].

فإن قيل: كيف يقال: إن الإيمان والإسلام بمعنى واحد، والله ﷻ يقول: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾.

قلنا: المنفى هنا الإيمان بالقلب بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ يعني لم تصدقوا بقلوبكم ﴿وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾، أي: استسلمنا وانقدنا خوف السيف، ولا شكَّ في الفرق بين الإيمان والإسلام بهذا التفسير، والذي يدعي اتحادهما لا يريد به أنهما حيث استعملا كانا بمعنى واحد، بل يريد به أن أحد معاني الإيمان هو الإسلام.

فإن قيل: كيف يقال: إن العمل ليس من الإيمان، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحجرات: ١٥] الآية؟

قلنا: معناه: إنما المؤمنون إيمانًا كاملاً كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، وقوله ﷺ: «المسلم مَن سلم المسلمون من لسانه ويده»، وقولهم: الرجل مَن يصبر على الشدائد. ويرد على هذا الجواب أن المنفي في أول الآية عن الإعراب نفس الإيمان الكامل، فلا يناسب أن يكون المثبت بعد الإيمان الكامل بل نفس الإيمان.

سورة «ق»

في قوله تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق: ١].

فإن قيل: أين جواب القسم في قوله تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾؟

قلنا: فيه وجوه:

أحدها: أنه مضمر تقديره: إنهم مبعوثون بعد الموت.

الثاني: أن قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ﴾، واللام محذوفة لطول الكلام تقديره: لقد علمنا كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾.

الثالث: أنه قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ [ق:٩].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾، وأراد به الحب الحصيد، فأضاف الشيء إلى نفسه والإضاءة تقتضي المغايرة بين المضاف والمضاف إليه؟

قلنا: معناه وحب الزرع الحصيد أو النبات الحصيد.

الثاني: أن إضافة الشيء إلى نفسه جائزة عند اختلاف اللفظين كما في قوله تعالى: ﴿حَقُّ الْيَقِينِ﴾، و﴿حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾، و﴿الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾، و﴿وَعْدَ الصِّدْقِ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾، ولم يقل: قعيدان، وهو وصف الملكين اللذين سبق ذكرهما بقوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾؟

قلنا: معناه عن اليمين وعن الشمال قعيد، إلا أنه حذف أحدهما لدلالة المذكور عليه كما قال الشاعر:

نَحنُ بِما عِندِنا وَأَنتَ بِما ... عِندَكَ راضٍ وَالرَّأيُ مُختَلِفُ[1]

وقال آخر:

رَماني بِأَمرٍ كُنتُ مِنهُ وَوالِدي ... بَرِيًّا وَمِن أَجلِ الطَوِيِّ رَماني[2]

الثاني: أن فعيلا يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع، قال الله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]، وقيل: إنما لم يقل قعيدان رعايةً لفواصل السورة.

وفي قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق: ٢٤].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿أَلْقِيَا﴾، والخطاب لواحد وهو مالك خازن النار؟

قلنا: فيه وجوه:

أحدها: ما قاله المبرد أن تثنية الفاعل أقيمت مقام تثنية الفعل للتأكيد باتحادهما حكما كأنه قال: ألق ألق، ونظيره قول امرئ القيس: «قفا نبك»، أي: قف قف.

الثاني: أن العرب كثيرًا ما يرافق الرجل منهم اثنين، فكثر على ألسنتهم خطاب الاثنين فقالوا: خليلي وصاحبي وقفا واسمدا وعوجا ونحو ذلك. قال الفراء: سمعت ذلك من العرب كثيرًا، قال: وأنشدني بعضهم:

فَقُلتُ لِصاحِبي لا تَحبِسانا ... بِنَزعِ أُصولِهِ وَاجتَزَّ شيحا[3]

---

(١) ديوان أحيحة بن الجلاح من قصيدة مطلعها: «يا مالُ وَالسَّيِّدُ المُعَمَّمُ قَد...».

(٢) ديوان عمرو بن أحمد الباهلي، من قصيدة مطلعها هذا البيت.

(٣) ديوان يزيد بن الطثرية من قصيدة من ثلاثة أبيات مطلعها: «وَفِتيانٍ شَوَيتُ لَهُم شِواءً...».

فقال: لا تحبسانا والخطاب لواحد، بدليل قوله: «لصاحبي».

قال: وأنشدني أبو ثور:

فَإِن تَزجُراني يا اِبنَ عَفّان اِنزَجِر وَإِن تَترُكاني أَحم عِرضًا مُمَنَّعا[1]

وقال امرؤ القيس:

خَليليَّ مُرّا بي عَلى أُمِّ جُندَبِ نُقَضِّ لُباناتِ الفُؤادِ المُعَذَّبِ[2]

ثم قال:

أَلَم تَرَياني كُلَّما جِئتُ طارِقًا وَجَدتُ بِها طيبًا وَإِن لَم تُطَيَّبِ

الثالث: أنه أمر الملكين الذين سبق ذكرهما بقوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾، ولم يقل: بعيدة وهو وصف للجنة؟

قلنا: لأنه على زنة المصادر كالزبير والصليل، والمصادر يستوي في الوصف بها المذكر والمؤنث، أو على حذف الموصوف، أي: مكانا غير بعيد، وكلا الجوابين الزمخشري -رحمه الله تعالى.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١].

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ بعد قوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾ بمعنى قربت؟

قلنا: فائدته التأكيد كقولهم: هو قريب غير بعيد، وعزيز دليل.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾، وكل إنسان له قلب، بل كل حيوان؟

---

(١) ديوان سويد بن كراع من قصيدة مطلعها: «تَقولُ اِبنَةُ العَوفِيِّ أَلا تَرى...».

(٢) ديوان امرئ القيس، والبيت مطلع قصيدة من خمسة وخمسين بيتًا.

قلنا: المراد بالقلب هنا العقل، كذا قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما. قال ابن قتيبة: لما كان القلب موضع العقل كنى به عنه.

الثاني: أن المراد لمن كان له قلب واع؛ لأن مَن لا يعي قلبه فكأنه لا قلب له، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] الآية.

سورة الذاريات

في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ [الذاريات: ٥].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾، والصادق وصف القائل لا وصف الوعد؟

قلنا: قيل: صادق بمعنى مصدوق كـ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾، و﴿مَاءٍ دَافِقٍ﴾، وقيل: معناه لصادق، فإن المصدر قد جاء على وزن اسم الفاعل؛ كقولهم: قمت قائمًا، وقولهم: لحقت بهم اللائمة، أي: اللوم.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الذاريات: ١٥].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾، والمتقون لا يكونون في الجنة في العيون؟

قلنا: معناه أنهم في الجنات والعيون الكثيرة محدقة بهم من كل ناحية وهم في مجموعة لا في كل عين، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر: ٥٤]؛ لأنه بمعنى أنهار، إلا أنه عدل عنها رعاية للفواصل.

وفي قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٣٧].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ أي: في قرى قوم لوط، وقرى قوم لوط ليست موجودة، فكيف توجد فيها العلامة؟